الطبعة الثانية

دار اكوان للطباعة والترجمة والتوزيع -القاهرة

دار اكوان للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع /القاهرة

الصبار الازرق
(حكايا انتفاضة آذار 1991)
رواية

ذياب فهد الطائي

مقدمة

عدنان حسين أحمد

(الصبّار الأزرق) بين مخيلة النص المفتوح وتعدّد الأبنية السردية

تنطوي رواية (الصبّار الأزرق) للقاص والروائي العراقي ذياب فهد الطائي على قراءات متعددة لواقع المجتمع العراقي. ولعل أبرز ما يميز هذا النص هو قوة الرصد، وعمق الالتقاط، ودقة المعالجة على الصعيدين الفني والفكري. وأكثر من ذلك فهي رواية أحداث وشخصيات ومواقف تعاطى معها الكاتب بعين نقدية صارمة، تدرس الحدث وتحلله لتستخلص منه النتائج والعبر، وتستغور الشخصيات وتفككها لتلامس مرجعياتها المستعارة والمكتسبة، وتسلط الضوء على المواقف العامة والخاصة لتستجلي الأبعاد الفكرية والسياسية التي هيمنت على متن النص وحركته الداخلية التي تعتمد على بنيتين أساسيتين، وهما بنيتا التتابع والتداخل، مع الاتكاء قليلاً على بنية الاستعادة الذهنية التي أمدت النص بعنصر قوة مضافة، وهو التنويع الزمني الذي انتشل النص من محنة الخوض في زمن روائي واحد قد يتطابق مع الزمن الواقعي، الأمر الذي يفضي بالعمل الروائي إلى السقوط في مطب الرتابة. لقد انتقى المؤلف موضوعاً روائياً كبيراً وهو حرب الخليج الثانية، لكنه لم يَخُضْ في التفاصيل الدقيقة التي لا تستوعبها مئات الكتب، بل ركّز على الظروف والملابسات التي أججتْ هذه الحرب الكونية وتداعياتها المأساوية على الشعب العراقي برمته. فمن خلال متابعته للحياة اليومية لبضعة أسرٍ عراقية استطاع أن يضعنا في دوّامة حرب الخليج الثانية، بدءاً من الرؤية الضبابية والمعوّجة للسلطة التي تمركزت في عقلية واحدة، تتوفر على مخيلة مريضة أو مجنونة لا تتورع من أن تركب المخاطر والأهوال إذا ما انتابتها نوبات الهستيريا الهوجاء، وانتهاءً بالثلة المتحلقة حوله من المرائين والكذابين والمتخلفين الذين لا يعرفون كم هو ثلث الثلاثة! إن العمل الروائي، كما هو معروف، هو الأقدر على استنطاق وجدان الأمة، وتصوير مشاعرها الداخلية العميقة من خلال حركة الشخوص في حيّز الوحدات الثلاث الواسع نسبياً (الزمان، المكان، الحدث). لم يستعن ذياب فهد الطائي بالأساليب المقنّعة لتمرير الرموز والإشارات التي تحيلنا إلى الهدف المقصود مباشرة. فمنذ الأسطر الأولى للفصل الأول في الرواية نكتشف أن الحوار يدور بين صدام حسين وعبد الأمير

معلة ليصوّر لنا طبيعة العلاقة المرتبكة، والمهزوزة، وغير المتوازنة بين رموز النظام أنفسهم، أو بالتحديد بين الحاكم وحاشيته. فالروائي يتهكم بشكل صريح من بعض المفردات والجُمل التي كانت تتردد على لسان الحاكم وهو يخاطب ضباطه وجنوده إن (اقفلوا الهدف) و (تمسكوا بالأرض) وغيرها من الأوهام، والتوصيفات المهلهلة، والتشبيهات الركيكة التي لا تعكس سوى عقم عقلية صاحب هذا التفكير، ورؤيته المشوشة للأفق السياسي، وقراءته المعوّجة للأحداث. إن صنعة الروائي الأمهر لهذا العمل تتجلى في قدرته الفائقة على خلق شخصيات أخرى تتمترس خلف رؤية ثقافية حادة تستطيع قراءة الواقع بحيادية عالية، وتتمكن من الغوص فيه بأسلوب عقلاني لا يحتاج إلى مبالغة أو تفخيم، ولا يلتجأ إلى الزيف والكذب أو ذر الرماد في العيون. وكما قال ماركيز: (إن الرواية العظيمة هي سبر لأغوار هذا العالم. فالروائي يجب أن يعبّر عن الواقع، ويهرب إلى الماضي، ويجابه المستقبل)، وهذا ما تجسّد في رواية (الصبّار الأزرق)، فهّم الروائي كان منصباً على تعرية الواقع العراقي، والكشف عن ملابساته، وتسليط الضوء على شخصيات أخرى تمتلك سر وجودها، وتشترط الرهان على الحقائق الدامغة مثل شخصية خالد عبد الدايم وزوجته فاتن وابنه أحمد وابنته نادية، وجمال، والسيد عبد الحافظ، وعائلة أبو زينب في الشامية، وغيرها من الشخصيات المتعاطفة مع العراق أرضاً وشعباً. في حين تصطف بعض الشخصيات الانتهازية المشوّهة إلى جانب السلطة مثل الرفيق، وبائع الدجاج، وسلمان الحرشان، وأبو روحي، وفؤاد وغيرهم. ناهيك عن وجود بعض الشخصيات الأخرى التي تقف على الحياد أو لا تحاول أن تحرّك ساكناً كي تدفع عنها الشبهات والمخاطر في ظل نظام يضطرك لأن تضع روحك على راحة يدك.

- التمركز حول الشخصيات المستديرة

يذهب دي. إج. لورنس إلى القول: (بما أنني روائي، فأنا أعد نفسي أسمى درجة من القدّيس والعالم والفيلسوف والشاعر. فالرواية هي كتاب الحياة المشع الوحيد). ولا يحتاج القارئ الحصيف إلى أدلة وبراهين دامغة ليقطع شكه باليقين من أن الرواية هي أقدر الأجناس الإبداعية على احتواء وصهر المعطيات الأدبية والفنية، وتذويب العلوم والمعارف الأخرى مثل علم النفس والفلسفة والسياسة والتاريخ والميثولوجيا والأسطورة والخرافة والسحر ضمن فضائها الإبداعي.

فالروائي المبدع بإمكانه أن يتعامل مع هذا الخليط المعرفي غير المتجانس ويصنع منه نصاً أدبياً تتلاشى فيه الحواجز المعرفية الصارمة أو ترتدي فيه الفكرة الفلسفية أو السياسية حلّةً أدبية. في رواية (الصبّار الأزرق) ثمة إحالات سياسية، وفكرية، ودينية، وخرافية جاءت ضمن نسيج النص الروائي، بل أنها أصبحت جزءاً من لحمة الشخصيات وسداتها. لا شك أن شخصية الحاكم بما تنطوي من عليه من تناقضات خطيرة هي شخصية (روائية) تحتمل الاسترسال، أما بعض الشخصيات الذيلية، المداهنة، المزيّفة التي تؤثث المكان الروائي ولا تدفع بسياقاته الفنية والفكرية إلى أمام مثل عبد الأمير وأبو روحي وسلمان وفؤاد فهي لا تؤثر في حركة القص أو الروي، لكنها تعطي تصوراً دقيقاً لواقع الحال الراهن، وما آل إليه من خراب روحي وفكري وأخلاقي ناجم عن الطروحات والتقاليد الجديدة التي أرستها السلطة في العراق. غير أن الشخصيات المستديرة هي التي أسهمت في تدعيم الأركان والمحاور الأساسية للهيكل العام للبناء المعماري للرواية. وبالذات شخصية خالد عبد الدايم، الرجل، المثقف، الذي يبدي امتعاضه مما يجري على أرض الواقع بسبب السلطة التي تتخبط خبط عشواء، وتقود البلاد والعباد إلى نفق مظلم ليس في نهايته بارقة أمل. الشخصية المستديرة ترتكن إلى خزين معرفي كبير، وقدرة على التشخيص، والتأويل، والتحليل، الأمر الذي يجعلها محط اهتمام القارئ لعدة أسباب لعل أبرزها أن هذه الشخصية المركّبة هي الرئة التي يتنفس من خلالها الجميع لأنها تمثل الصوت العام المقموع والمهمّش والمُصادر. وهي الأقدر على استخدام السخرية اللاذعة، والتهكم الظاهر والمبطن، واللعب على الكلمات. كما أنها تتحكم بمشاعر القارئ الجياشة، وتستعين به عندما تنفتح على شخصيات النص الأخرى التي تتعاطف مع الخير، وتقف بكل ثقلها المعرفي والسياسي والإنساني ضد الشر عندما تسفّه آراء الشخصيات الممسوخة والآيلة للسقوط. خالد عبد الدايم مثقف عضوي، ناجح في حياته الزوجية، ويسعى لأن يعيش حياته بحرية تامة تنسجم مع مزاجه النفسي والفكري والسياسي. أليس الإنسان سيد مصيره؟ لهذا فإن القارئ يتعاطف مع أراء هذه الشخصية، ويتبنى طروحاتها، ويقف إلى جانبها، لأنها مرآة عاكسة للإنسان الحر، والنموذج النقي الذي لا تشوبه شائبة. فاتن، زوجة خالد عبد الدايم هي شخصية (مستديرة) أيضاً، ومثقلة بمحمولات رمزية كثيرة. وهي فضلاً عن ذلك شخصية مثيرة لبعض الأسئلة الفكرية والإنسانية حتى أن عنوان الرواية ينبجس من أحد تساؤلاتها المحيّرة عندما تخاطب زوجها خالد عبد الدايم قائلة: (هل تصدّق أنني أرى غابات النخيل غاباتَ صبار أزرق !؟). من هنا يتأسس

سؤال الرواية، ويتبلوّر سرها الذي يظل منتظراً مَنْ يفك طلاسمه. وعندما يوغل في إلحاحه لمعرفة حكاية الصَّبار الأزرق (يلوح في عينيها شبح ابتسامة شقية) فيتذكر أن الصَّبار (هو الصحراء . . الغموض والمخاطر) ويتذكر مطلع القصيدة التي بعثها ذات يوم.

(من غابة الصَّبار عُدتُ يا حبيبتي لعلني في مقلتيكِ واجداً مزار). أما الشخصية الأكثر احتجاجاً وتمردا فهي نادية التي وصلت إلى درجة كبيرة من اليأس لأنها ترى أن في العراق (رجلاً واحداً يحرّك الأحداث والناس والأشجار!). وعندما يلتمس منها العم فاضل أن تكون أكثر إيماناً على اعتبار أن قدرة الله لا حدود لها، فتردّ عليه: (ولكن هذه القدرة ستتوقف عند أبواب القصر الجمهوري!). إن شخصية نادية تكاد تشكّل العصب النابض في جسد الرواية لأنها الشخصية الوحيدة التي تثير أسئلة جوهرية على درجة كبيرة من الخطورة. فهي لا تتورع من القول: (هل سيريحنا الله من هذا الرجل؟) أو (أين يتحرك المحترم الآن؟) أو (هل قرأ التاريخ حقاً كما يدعي؟ وإذا كان قد قرأه فهل استوعبه؟). إن الملامح التي رسمها ذياب الطائي لشخصية نادية هي ملامح قوية، وجذابة، ولا تغادر ذاكرة القارئ بسهولة، لأنها شخصية رصينة ،وثرة، وقادرة على البقاء والمقاومة. وهي تستمد قوتها من دون شك من خلال ثقافتها، ومعرفتها، وقراءتها الثاقبة للأحداث. فالمرأة التي تقرأ لسيمون دي بوفوار وسارتر، وتتعمّق في دراسة الفلسفة والتأريخ من أجل اكتشاف الحقيقة أو ملامستها في الأقل، وتقوم بمطاردات شعرية مع محبي الشعر ومريديه من الأصدقاء والأقارب، وتستمع بقراءة (الجحيم هم الآخرون) أو (زمن الحب، زمن الحرب)، وتجد لذة في شرح حركة التاريخ الاجتماعي أو الحديث عن الجدل عند هيغل أو أثر الوجودية في الفكر الماركسي في فرنسا وما إلى ذلك من إنشغالات فكرية وثقافية. هذه الشخصية لابد أن يتعاطف معها القارئ، ولابد أن يعزّز تذمرها واحتجاجها، ويقتنع بآرائها المُربكة، فهي لا تميل إلى النظام مطلقاً، ولكنها لا تُحب الأمريكان أيضاً وتنتقد أغلب آرائهم، وطرق تعاطيهم مع القضية العراقية. إن هذا التألق الدائم لشخصية نادية هو الذي يجعلها تعيش لأطول مدة ممكنة خلافاً لشخصية أحمد التي تفتقر إلى مقوّمات الاستمرار على الرغم من اتكاء هذه الشخصية على قصة حب لم تأخذ حقها الطبيعي من النمو والتوهج بسبب الظروف الشائكة والملتبسة التي كان يعيشها العاشقان معاً. ومع ذلك فإن المحمولات الفكرية والثقافية لأحمد هي اضعف بكثير من الخصائص والمعطيات التي أمدّت شخصية نادية بأسباب الحياة، والتوهج الدائم الذي يأسر اهتمام القارئ، ويحفّز الناقد على

البحث والتقصي والتأويل. هناك شخصيات أخرى تؤثث النص الروائي، وتعكس صوراً مختلفة للشرائح الاجتماعية التي تكوّن المجتمع العراقي في ظل هذه الظروف الاستثنائية. فشخصية جمال لا يمكن الاستغناء عنها في هذا النص لأسباب كثيرة من بينها أنها شخصية تهكمية، ساخرة، مجازفة لأنها لا تستخدم التورية المبطنة، وإنما تتفوّه بالتوصيفات العارية والإحالات التي انكشف أمرها للناس. فعندما ينادي على ولده الصغير (صادق) باسم (بطيحان) أمام الضيوف فإنه يحيلنا مباشرة إلى الشخصية الشرّيرة والخبيثة في مسلسل (بطيحان الأردني) الذي عرضه التلفاز العراقي آنذاك، ولكن دلالات الشر والخبث والجريمة قد انتقلت من (بطيحان الأردني) إلى (بطيحان العراقي) الذي نعرفه جميعاً. فمن خلال نجاح المؤلف في (ترحيل الدلالة) عبر آلية ذكية استطاع أن يزرع في ذاكرتنا شخصية خفيفة، ومرحة، تعربّد، وتجازف، وتشخّص مواطن الخلل، وتنتقد بشجاعة نادرة، وهي تدرك جيداً أن هذا الانتقاد قد يفضي بها إلى ما لا تحمد عقباه. إن (جمال) هو ذاكرة جمعية لشريحة واسعة من الناس البسطاء. هذه الشخصية وسواها من الشخصيات الشعبية الأخرى هي التي ترفد النص بأسباب الحياة، وتمده بعناصر التنوع والاختلاف الذي يثري النص، ويمنحه نهكة خاصة. جمال يمتلك ذاكرة خارقة، ويحفظ أسماء الناس الذين يلتقيهم بطريقة عجيبة، ويعرف كل الذين يرتادون مقهى (جزيرة العرب). بمعنى آخر أنه العين الراصدة، المراقبة لحركة والأحداث على حد سواء. إن العمل الروائي ليس تسجيلاً فوتوغرافياً للواقع، وإنما هو تصوير فني لحركة الحياة بكل تناقضاتها وتفاعلاتها، وهو امتداد أفقي وعمودي في تفاصيلها الدقيقة التي لا يلتقط نبضها إلاّ الكُتّاب المبدعون. فخلال أسفار ومكابدات خالد عبد الدايم المتعددة إلى عمّان والنجف والشامية والكوت يصوّر لنا بأمانة الحيوات الحقيقية لشخصيات وأسر عراقية عديدة تمثل روح العصر بكل تناقضاته الشديدة، وهذا ما منح الرواية مصداقية نادرة. ففي بغداد نتعرف على عوائل منقاة بعضها بغدادية، وبعضها الآخر وفد إلى العاصمة منذ وقت طويل مثل عائلة جمال، وأبو شهلة، وسلمان الحرشان، والمدير العام، والرفيق الذي كانت أسرته مغيّبة عن قصد. وفي عمان نتعرف على عائلة (أبو روحي) الذي شاهد بأم عينيه وجه القائد في القمر! وفي المحافظات العراقية نلتقي بالعديد من الأسر التي تمثل وجدان الأمة وضميرها الحي مثل عائلة أبو فاضل في النجف، وأبو زينب في الشامية، وعائلة جاسم في الكوت التي نتعرف عليها من خلال بوحه واسترساله في الحديث عن الفواجع التي ألمّت بأسرته وغيرها من الشخصيات

الكثيرة التي تظهر وتختفي ضمن سياقات النص وضروراته البنائية الفنية والفكرية. ومع ذلك تبقى شخصية خالد عبد الدايم هي وأسرته المفتاح الذي نفتح من خلالهم أبواب الجحيم وهم يسردون لنا عبر مشاهداتهم وقائع الانتفاضة المجيدة التي حدثت في مدن الجنوب العراقي. إن هذه الانتفاضة هي رسالة النص الروائي الأساسية. وأستطيع أن أجزم بأن (الصبار الأزرق) هي واحدة من أصدق الروايات التي كُتبت حرب الخليج الثانية، وانتفاضة آذار الخالدة، وتداعياتها الخطيرة على الشعب العراقي تحديداً.

• النص المفتوح

لا تخضع رواية (الصبّار الأزرق) إلى شروط الكتابة الأرسطية، أي أنها لا تتبنى آلية التأليف المغلق الذي يقوم على مبدأ (السبب والنتيجة) بحيث يقدّم للقارئ حلولاً جاهزة، ولا يدعه يشارك في مجرى الأحداث، ويحد من تشظيات المخيلة التي تتوهج عندما يتماهى القارئ العضوي في بعض المواقف والشخصيات التي تخرج من إطارها الفردي، لتأخذ طابع الظاهرة أو بُعد شريحة كبيرة من الناس. إن النص المفتوح هو الذي يحوّل القارئ العادي إلى كائن متفاعل مع مجرى الأحداث بحيث تنسجم مشاعره وأحاسيسه الداخلية مع مشاعر البطل في تعاطيه مع تطورات الأحداث، وتصاعدها الدرامي. ففي النص المفتوح لا وجود للقارئ السلبي الذي يتلقى نمو الأحداث بحيادية، ويقبل بما يمليه عن الكاتب من رؤى ونتائج جاهزة. رواية (الصبّار الأزرق) هي أنموذج للنص المفتوح، ليس على صعيد الشخصيات المحورية التي تلفت اهتمام القارئ، وتستدعي فضوله حسب، وإنما يمتد هذا الانفتاح ليشمل أغلب شخصيات الرواية، هذا ناهيك عن أن الحدث نفسه ما يزال مفتوحاً وقابلاً لتأويلات عديدة. فشخصية أحمد الذي تربطه علاقة حب خجلة بآمال لم تتطور إلى الحد الذي ينتظره القارئ من حبيبين في عنفوان شبابهما، ولهذا تظل مخيلة القارئ مفتوحة على مديات وتصوّرات ربما لم يفكّر بها مؤلف النص نفسه. شخصية نادية هي الأخرى مفتوحة لاقتراحات وتوقعات القارئ الذي يتساءل عن السر الذي كان يدفع بها لأن تتمترس خلف حاجز يمنع اتصالها الحميم بزملائها في الكلية أو بمعارفها في

الحي الذي تسكن فيه. وحتى شخصية سلمان الحرشان السلبية التي تسلط الضوء على نماذج ممسوخة من هذا المجتمع ارتضت أن تبني حياتها على ما تسرقه من الكويت أو من المدن العراقية أيام انتفاضة آذار. هذه الشخصية ظلت مفتوحة على أفق مبهم، سواء في زواجه الذي لم يشهده القارئ بالرغم من تطوّر معطيات تحققه مثل بناء الفيلا، واستكمال الاستعدادات الأخرى. إن عناصر الاتصال أو التراسل في النص الأدبي تقوم على ثلاثة ركائز أساسية وهي (المُرسل، الرسالة، والمُرسَل إليه). وإذا كانت شخصيات النص الروائي التي يختبئ خلفها المؤلف نفسه هي (المُرسِلات) التي تبث أفكارها وطروحاتها فإن (المُرسَل إليهم) هم القُراء من دون شك. غير أن هؤلاء القراء يحتلون مساحة مهمة في حركة النص المندفعة إلى أمام، وهم يحملون جزءاً كبيراً من (رسالة) النص الذي يظل مفتوحاً على تصوراتهم ومقترحاتهم الذهنية والعاطفية في آن معاً.

إن بنية التقابل أو التضاد تتحقق في هذه الرواية من خلال بعض الإستعادات الذهنية التي تفتح النص ، بقدر أو بآخر، على الماضي، كما أنها تقدّم صورة إستشرافية للمستقبل. ولتوكيد إفادة الكاتب من آلية (الفلاش باك) وتوظيفها في متن النص سنتوقف عند ذكر حالتين إسترجاعيتين أبقيتا الباب مفتوحاً على الماضي، الأولى في الفصل الأول عندما (تتذكر) فاتن أحداث 1963، وكيف كانت طائرة محلّقة في سماء بغداد تنقّض على وزارة الدفاع، ودبابة تحرث الإسفلت في الوزيرية، وتفكر بخالد الذي كان معتقلاً وانقطعت أخباره. والثانية في الفصل الخامس عندما تذكر خالد رائحة مخلفات الشاي العفنة المنبعثة من الصفيحة القذرة المركونة قرب الموقد بالصفيحة العطنة الموجودة في غرفة التحقيق أيام الحرس القومي، ثم تتداعى (حفلات) التعذيب القاسية في ذاكرته ليمد القارئ بصور حقيقية مروّعة حدثت في التاريخ السياسي للعراق الذي ظل ينزف دماً عبر مراحله المختلفة. وهناك مواقف إسترجاعية كثيرة يتذكر بها جاسم صاحب المقهى في الكوت قصة اختطاف أخيه حسن وإعدام ابنه الكبير حميد بحجة انتمائه لحزب الدعوة. وفي الختام نستطيع القول إن رواية (الصبار الأزرق) هي نص روائي مفتوح بجدارة وتمكّن على الأزمنة الثلاثة، مثلما استطاع أن ينفتح مكانياً على مساحة واسعة جداً تمتد من بغداد إلى عمان، مروراً بكل مدن الفرات الأوسط والجنوب، وانتهاءً بالكويت. كما ركزت الرواية على أبرز التصريحات السياسية والفكرية لقادة دول التحالف الذين تمادوا في لهجتهم العدوانية التي تخبئ خلفها منجماً من الحقد الدفين على شعب بريء لا ناقة له ولا

جمل في هذه الحرب العبثية التي لم ينطفئ أوراها حتى هذه اللحظة. إن رواية (الصبار الأزرق) هي شهادة أمينة وصادقة أسقطت الكثير من الأقنعة الزائفة التي يرتديها أدعياء هذا الزمن الرديء. كما أنها قطعة أدبية رصينة تستحق القراءة والتمثّل وإطالة النظر

الفصل الأول

أغلق جهاز التلفاز، وقف وسط الغرفة يتطلع الى الجدران والى اللوحات المعلقة، اكتشف إن بعض اللوحات تبدو عليها مسحة من الحزن والغربة، بدأ شعور حزين ومتوحد يتسرب الى روحه

. تطلع ثانيه الى التلفاز المغلق

- سيدى

كان الرجل أصلعا ، رأسه مكورة لامعة تحت أضواء العدسات ،ترتفع يده اليمنى بورقه يتطلع نحوها ولكن من الواضح انه لا يقرأ ،إنه يحفظ ما يقول ،أما يده اليسرى فقد استكانت الى جانبه وغطى كمها معظم كفه ،شعر الرجل باستخذاء وهو يحس بالأعين فى الصالة كلها معلقة به ،بدا واضحا انه يرتجف

. - سيدى

- نعم

.

.كان الصوت مواربا نافذ الصبر ومتهكما

.....- رغم أنى اعرف جواب سؤالي إلا أنى أود ان اسمعه من سيادتكم

ان ما يقوله شخصكم العظيم المحبوب ،سيكون قطعا الحقيقة المطلقة التى يركن اليها شعبنا العظيم الذى يستمع الان كله الى ما يدور في اجتماعنا هذا معكم.

صمت لحظه ثم تابع

- سيدى هل يمكن ان ينال الأعداء من شعبنا وأرضنا.

!- اسمع

التفت نحو" المسؤول "الذي الى جانبه ووشوشه ثم تابع

- يا عبد الامير لقد أمرت بإجراء هذا اللقاء بكم لأن لدى رساله واضحة ومحددة أود توجيهها الى شعبنا العظيم ولأبناء أمتنا العربية المجيدة ...نحن منتصرون ...لا أشك بذلك ولو واحد بالمليون ...ما أطلبه هو ان تعمل أنت ورفاقك على توعيه الجماهير بان يقفلوا على الهدف....الى الجنود فى الجبهة بان يتمسكوا بالأض .

- نعم سيدي

....- اسمع

بدا صوته الرخو خطيرا مهددا وعدوانيا

...- اسمع

صمت الرجل وهو يتضاءل تحت سترته البيج الواسعة وأ حس بالحرج هل يجلس ام يظل واقفا ....بدأت قطرات من العرق تتجمع على قمة رأسه المكورة ولم يجرؤ على مسحها .

.... - نحن مسلمون

كان ينتظر ردا ولكن الرجل كان مستخذيا تحت وطأة العينين المهددتين والصوت الخطير

- أليس كذلك يا عبد الأمير ...؟

- نعم سيدى

ـ حسنا وتؤمن بالله وبالقران الكريم... انه الكتاب الذى اوحى به الله سبحانه وتعالى الى نبيه محمدا"ص" وانه حق وصدق لا يأتيه الباطل من قبل ومن بعد ...

ـ قطعا سيدى

ـ ماذا يقول كتاب الله؟

..... احتار الرجل فعن ماذا يقصد ...أى الآيات أو أى السور

ـ حسنا انت لا تعرف ياعبد الأمير ....وانا أقول لك وليسمع كل العراقيين والشرفاء من ابناء امتنا المجيدة ...انه يقول ان المسلم بعشرة من الكفار ...ماذا يعنى هذا بلغة الأرقام التي نستحضرها للمعركة ؟

صمت قليلا وتطلع الى القاعة متنقلا بعينيه المتوعد تين يتصفح وجوه الحاضرين وتابع

ـ لدينا مليون جندى ...هذا يعني انهم عشرة ملايين ...لدينا خمسمائة طائرة ...اى خمسة الاف....وهكذا بالنسبة لبقية الأسلحة والامكانات المتاحة ...إذا ماذا سيفعل المعتدون ؟

ـ حقا سيدى ان جندك وهم يستذكرون كتاب الله العظيم وسير أبطال المسلمين .فانهم يستلهمون القوة والعزيمة منك سيدي

أغلق (خالد) الجهاز ...لم يستطع الاستمرار بالاستماع ...كان يجادل أصدقائه بأن الحرب قادمه وكان اغلبهم لايصدق ذلك،لا يمكن ، القيادة تدرك مخاطر الحرب، ما يجرى فى الخليج وعلى الحدود ما هو الا استعراض قوه ..سينتهى كل شيء قبل أن يبدأ لأن امريكا لن تحارب وهى لاتزال تستشعر مراره حرب فيتنام ....حسنا..ولكن كل المعطيات على الارض قد تغيرت وامريكا نفسها تغيرت والموازنا ت التى كانت تحكم العالم لم تعد قائمة، ....الجيش العراقي يعانى من مشاكل خطيرة،الان فقط ادرك ،ليست الحرب وحدها هى القادمة ولكن مآس لا حصر لها قادمه أيضا، وانه لا يمكن لمثل هذا الجنون ان يقدر ما سيقع .

قطع الغرفة ذهابا وأيابا مستغرقا فى التفكير .....لن تبقى عائلته في بغداد ولن يستمع لاحتجاجات زوجته .

السيارات النازلة جنوبا تزدحم على الشارع ، كرنفالا بهيجا غا بت عنه مظاهر الخوف ،السيارات مليئة بالركاب ...حزمت الأمتعة والفرش على السقوف ، يتبادل السائقون النكات ويتسامحون فى حالات التجاوز.

كان صباحا شتائيا تأ لقت فيه أشعه الشمس على سعف النخيل الممتدعلى جانبى الطريق فيما تضوعت رائحة البرتقال تشيع فى الجو بهجة وعذوبة .

ـ كم سنبقى ؟...قالت ناديه

لا أدرى ....ننتظر الخبر من أبيك , ردت أمها بفتور فقد كان ذهنها مشغولا، تترك زوجها وحيدا.!!.شعرت بشيء من التوبيخ ،كيف سيتدبر أمره اذا وقعت الحرب؟. واذا....!!! ترددت فى الانسياق وراء تفكيرها، عادت ثانية، واذا اخطأ ت قذيفة طريقها لتقع في بيتهم ,العياذ بالله لا لن يكون الامر على هذا النحو.

بيتهم لا يوجد بالقرب منه معسكر أو حتى رشاش على السطح ، كان جارهم بالمخابرات وقد شاهدته ينظف رشاشا صغيرا قال احمد انه كلاشنكوف،

تذكرت اغنيه من ايام القتال فى عمان ، كلاشنكوفى يسابكنى ينير دروبى ...ولكن كيف سينير هذا الكلاشنكوف ؟؟ قال زوجها, الكلاشنكوف!! انه لعبه للصغار

قال احمد :ـ ماما

استدار نحوها

ـ لا تلتفت...اتبه للطريق , ماذا تريد؟

ـ هل تعتقدين ان أبى سيلحق بنا ؟ بيت فاضل بالكاد يكفى عائلتهم فكيف سنتدبر امرنا؟

....ـ الله كريم

.....حسمت الاستمرار بالحديث ، إن ما يقوله صحيح

ـ ولكن هل ستطول مده غلق الجامعة ؟

لم يك يوجه سؤاله الى أمه أو اخته ، كان يتساءل , الجامعة ليست الدراسة فقط،.. بدأ يفكر بها منذ عدة اشهر، وظل أياما يبحث عن طريقه للحديث معها

لقد تأخرت عن محاضرة التاريخ الحديث هل استطيع أن أستعير دفترك رجاء ؟ شعرت انه يحاول التواصل معها، ربما تأخر عن المحاضرة عمدا ليعطى لنفسه مبررا معقولا

أعطته الدفتر ، حينما عاد الى غرفته كان يتطلع الى الدفتر كشيء عزيز ، قريب الى نفسه , الخطوط المتعرجة على ا لصفحات بدت سواق معشبه تمرح فوقها عصافير ملونه ، لامس الصفحات والاسطر برقه وشعر بأن كل ذلك يغفو فوق صدره.

!!- انتبه للطريق أحمد

قالت نا ديه ذلك بصوت قلق

..- آسف لقد سرحت وأنا أفكر بالجامعة

.- وبا لدفتر ذي الغلاف الجلدي البنى على ما أعتقد

قالتها بنبرة خافته ...كان صوتها مناورا

- لا تكوني ذكية الى هذا الحد

- ماما

تطلعت فاتن الى صف النخيل , كانت خضرة السعف زاهية ، خالجها شيء من السرور وهى تستمع الى مشاكستهما .

- ناديه اصمتي ،الطريق مزدحم وقيادة السيارة متعبه ، كفّى عن هذا الهذر وناوليني بعض الشاى ، ثلاث ملاعق سكر وبالكوب البلاستك رجاء

- لماذا لا نتوقف على جانب الطريق ،الصباح رائع والشمس دافئة ، قد لا نستطيع الاستمتاع بالصباحات القادمة

- فأ ل الله ولا فألك . قالت فاتن

مساء اتصل أحمد بأبيه بواسطة هاتف البريد

قال أبوه - لا جديد ، كل شيء ممكن، اعتن بأمك واختك ورتّب أموركم مع فاضل، اعتقد ان ما يهمه هو ان تتولوا أمر الوجبات ،سيتضح كل شيء الليلة بعد انتهاء مهله الإنذار ، قد أحضر اليكم وقد نذهب الى مكان اخر اذا ما تأزمت الأمور.

فهم من حديث أبيه أنه قلق ، غير واثق من الشكل الذى سيأخذه مجرى الاحداث، سبب له هذا شعورا متشائما ولكنه حاول ألا ينقل انطباعاته الى أي من أمه أو أخته

نا ديه كانت لجوجه : هل سيحضر أبى ؟....سأكلمه غدا لانى احتاج المذياع الصغير, لقد نسيته ،آمل ان لا نبقى طويلا فانا لا استطيع النوم مع الاخرين

ـ الاخرون !! أنا وأمك فقط

ـ وبالغرفة المجاورة العم فاضل وخاله خديجه والبنات , لقد جربت ذلك مره ،أسمع تنفسهم , نحن ننام جميعا بصا له معزولة بالكارتون.

ـ ناديه لا تبدئي ، لا المكان ولا الموقف يسمحان ....نحتاج فقط ان نطمئن على حياتنا , لقد اقلقني حديث أبى , بدا غير واثق وبشكل اكثر وضوحا بدا لى خائفا.

ـ لماذا لم يحضر معنا...اسمع ....غيّر الموضوع الوالدة قادمه

ـ عن ماذا تتحدثان ؟ ناديه اذهبى لمساعدة خالتك فى المطبخ وأنت لماذا لا تحاول الاستفادة من الوقت , افتح كتابا.

تذكرت عام 1963 كانت طائرة تحلق فى سماء بغداد ثم تنقض على وزارة الدفاع ويدوى صوت انفجار هائل ...فى الشارع ،وأمام القسم الداخلي للبنات فى الوزيريه كانت دبابه تحرث الاسفلت متوجهة الى باب المعظم ... مواجهات دموية ...كان ايضا صباحا شتويا مشمسا ...فكرت بخالد...الفتيات تجمّعن فى غرفه المشرفة وهنّ يصرخن من الخوف ...قد يقتل ...كان معتقلا وانقطعت اخباره ...فى مثل هذه الفوضى تصفى حسابات عديده فى الغالب....فى اليوم التالى جاءها الى القسم الداخلي ليرتب امر عودتها الى البصرة ...كان مجهدا عيناه تدوران بقلق

ـ ما هذا ؟

ـ كتاب الاحصاء ...خرجت أمس ...سأعود الى الجامعة وماده الاحصاء هى الوحيدة التي تقلقني ولهذا استعرت الكتاب ...لن استطيع العوده الى البصرة, ... سابقى فى بغداد ...اذا هدأت الامور عودي

اليوم هو أيضا لا يستطيع مغادره بغداد... .ناديه تشبهه ...احمد !!!عليها ان تلاحقه ليراجع مواد دراسته ...حينما تنشغل أو تضطر للسفر فان ما يظل يؤرقها هو مذاكرة احمد ...حينما ترفع سماعه الهاتف كانت تسأل اين وصل احمد بالمذاكرة

.ـ ماما عدت ثانيه للسفر! نحن هنا , بالتأكيد سأقرأولكن لا اليوم ولا غدا ،ارتاحى

كان صوته يعبر عن نزق صبياني

فى الصالة المفروشة على الطريقة العربية , بسط ملونه مما يصنع في قرى السماوة ووسائد طوال على الأركان , صوت المذياع يردد اغنية تضج بحماسة مفتعله , تغالى بالتمجيد وتتوعد بالعقاب ...كان المنشدون يرغبون الإيحاء بأقصى درجات العزم

قالت ناديه : كيف يمكنهم أن يصرخوا طوال خمس عشره دقيقه!! حينما كانت تشاهدهم على التلفزيون كانت تبتسم مشفقة ,النسوة ينتصبن تعويضا عن مظهرهن الانثوي الذى لا يتنا سب وكلمات النشيد.

.خيل لها أ ن احدى المنشدات لا مباليه تزم شفتيها بشيء من الاسترخاء الملول

هل سيريحنا الله من هذا ؟ :

ـ لا اعتقد فقدر المجد وقدر الخوف مكتوب لنا

.مسحت رغوه الصابون عن يديها

قال فا ضل ـ ناديه يا ابنتى كونى اكثر ايمانا ، قدرة الله لاحدود لها

!!!! ـ ستتوقف عند أبواب القصر الجمهوري

ـ أستغفر الله

ـ ولكن فكر معي ياعم ,انها ايضا قدره الله ,رجل واحد يحرك الاحداث والناس والاشجار , اعنى ....

قاطعها فاضل بعصبية على اية حال خالتك ام سراب حذرتني من المناقشة معك , عودي لإكمال غسل الصحون وبعدها سنعمل جولة مطاردات شعرية فاستعدى لذلك جيدا

.كان احمد يقف عند الباب يجاذب شابين

ـ تذهب الى الكلية بالسيارة ؟

ـ نعم

ـ ولديك اجازة سوق حقيقيه

ـ بالطبع وهل هناك اجازة سوق مزيفة

ـ لا اعنى انك نجحت بالامتحان ....يقال ان امتحان القيادة صعب , نحن نذهب الى الكلية على الدراجات ,لا شرطة مرور ولا تجديد الرخصة

ـ اسهل , وفى اية كليه انتما

!!ـ أنا فى كلية الآداب وزميلى حسن فى التربيه، يقال ان بغداد قد أخليت

نادت ناديه ـ احمد.....كلّم ماما

ـ اسمحا لى و سنلتقى قريبا

تجاوزت الساعة السابعة مساء , الليل يخيم سريعا , فى الخارج الإضاءة بالكاد تساعد على الرؤية , بعض المصابيح هشمها الصغار وهم يعودون من المدارس , فى الصا له تحلقوا أمام التلفاز ... كان المذيع يجرى حورا سريعا ومباشرا فى الشوا رع ، يسأ ل الناس عن رأيهم فى الحرب, ظل الجواب يكرر نفسه , منتصرون

علق أحدهم بتخابث يسأ ل المذيع "أليس كذلك؟

انتقلت الكاميرا الى مواقع عسكريه فى الكويت وعلى الحدود , وقف جندي يلقى قصيده شعبيه ثم أهزوجة " أنت أسمك هز امريكا ", الجنود يدورون ضاربين على الأرض الترابية بأحذيتهم مثيرين موجة من الغبار فيما راحوا يلقون بأغطية الرأس العسكرية فى الهواء .

فى العاشرة توزعوا على الغرفتين فى الدار ...فى الثانية والنصف كانت المدينة تهتز تحت وطأة القصف الصاروخي.

حين عاد من العمل كانت الساعة الخامسة والنصف ، فى بغداد يبدأ الليل الشتائي مبكرا , أحس بموجه برد وهو يفتح الباب فاسرع الى المدفأة الغازية لتتوهج مرسلة لهبا احمرا أشاع الدفء ,.فتح المذياع ...كانت مونت كارلو تذيع تحليلا

عسكريا عن الموقف تحاور ثلاثة خبراء فى الشؤون العسكرية ,ليس من السهل البحث عن أوهام تفضى الى استبعاد الحرب، لم يدخل الى غرفه النوم ليغير ثيابه ...تناول المنامة والروب من الشماعة واتجه الى المطبخ ,.كانت فاتن قد أعدت ثلاث وجبات احتياطا ، وضع القدر على الطباخ الغازي وانتظر وهو يتابع . الاستماع الى المذياع

ارتمى على الأريكة ممددا رجليه على المنضدة, تملكته وحشة غامرة وعصر قلبه حزن مرير ...زوجته ...أحمد ...نا ديه الرقيقة المشاكسة , هل سيلتقى بهم ؟ لم يجد بنفسه رغبة لرفع سماعة الهاتف ليكلم بعض أصدقائه علّ ذلك يخفف شيئا من لوعته

ماذا سيحصل وماهي النتائج ,هل ان ما سيتعرض له العراق يساوى كل تلك الافكار ....اى غطاء هذا لمجد باهض التكاليف !!! تذكر ماركيز, لا توجد أفكار عظيمه تستحق كل هذه السفالات

بدأ نعاس خفيف يتملكه ، بطيء ولكن شامل ،ثقلت اجفانه ثم راح بإغفاءة عميقة , صحا متعبا , أحس بان جسده يتخشب ,حرك قدميه ,طوى ذراعيه ثم مدهما , حرك جذعه عله يكتسب مرونة , كانت محطة مونت كارلو تذيع بالفرنسية, انتقل الى القاهرة ثم الى لندن , كل اللغات تتحدث عن الحرب كل اللهجات تنذر بالماساة , كان تلفاز بغداد يقدم فيلم السهرة الاجنبى

حين عاد ثانية ينطرح على الاريكة كانت الساعة الواحدة , فكر أن يصعد الى السطح ليجمع ا لملابس التي نشرتها فاتن ،خالد. انتبه للملابس فقد تمطر ,أحس بأنه متعب, غفى , لم يدرك الموقف , كان يداخله شعور بأن حلما صاخبا يضرب في جنبات رأسه , اعتقد ان الرعد هو الذى يعبر سماء بغداد فيهتز البيت , تذكر الملابس المنشورة على السطح , ركض الى السلم ...لقد أخطأ بتركها للمطر , يجب أن يسرع , فتح الباب ، كا نت السماء لوحة مضيئة من الشهب , أصوات انفجارات صاخبة مدوية , أدرك ان الهجوم قد بدأ ,عاد الى الصالة ....أدار المذياع الى محطة بغداد ، كان المذيع يقدم اغنية لماجده الرومى , ترجو بإلحاح (كن صديقي) ، لندن تقول انها بسبب الهجوم على العراق ستستمر بالبث باللغة العربية، مذيع صوت امريكا يقدم وصفا حيا للهجوم , كانت كل محطات العالم ومرة اخرى و بكل اللغات تقول أن العراق يحترق.... صرخ فى الصالة" ابك يا وطني الحبيب " ضرب جبهته بقوة وحدق الى الجدران الكئيبة وهى

تشرب سواد الليل وبشاعة المأساة , احس أنه مقهور وتفجر حزن طاغ فى اعماقه , عاد ثانية الى السطح ليشاهد ملايين الاطلاقات من المضادات الارضية والرشاشات المختلفة والبنادق والمسدسات .....كان إطلاق النار أشبه بهستيريا معديه ,لا أحد يعرف على ماذا يطلق النار ومن الذى يستهدفه ....اهتز السطح ....كان الانفجار مدويا

على مقربه, ربما فى القصر الجمهوري أو مرسلات الإذاعة , كانت الانفجارات تتوالى , ماذا يمكن ان يعمل الصبية غير ان يتشبثوا بصدور أمهاتهم المذعورات؟!

بغداد لاتزال تبث أغان مرحه, ماذا يحدث يا الهى ,أيعقل أنهم نيام لم توقظهم كل هذه "الضجة" ,ليس من السهل ا لتصديق بأنهم مرتبكون أو أنهم كانوا يعتقدون ان انذار بوش مجرد مزحة ثقيلة ليس أفضل من تجاهلها.

الساعة السادسة صباحا ، قرر خالد أن يلتحق بعائلته ، فى الطريق كانت بغداد لاتزال تمارس طقوسها اليومية بالحديث عن الضرورة التاريخية لقدر الامة العربية ، يتخلل ذلك اغان كانت عذوبتها نشازا، كان تجاهل ما يقع محيّرا ومستفزا.

خرج من بغداد الى طريق المرور السريع , فى الساعة السادسة والنصف قطع المذيع الاغنية ليعلن " اننا بانتظار كلمة هامة" كان صوت المذيع مرتبكا خائفا , حتى انه نسي ان يتلو الديباجة المقررة ,الحمد لله , سيعرف اخيرا ماذا سيقررون ....بدأ الصوت الرخو منهكا مواربا يتردد كصدى اجوفا , كان يعطى انطباعا جازما بانه قد خدع!!! اللعبة لم يكن مقررا لها ان تأخذ هذا المنحى , يا للغباء المجنون , كانت كلمة خائبة ،محبطة وتائهة ليس فيها ما يمكن أن يوضح شيئا , لقد بدأت المأساة ...لقد انتهى كل شيء , انهم يعرفون على نحو بالغ السوء ما عليهم أن يفعلوه , على نحو ابتعد تماما عن الوا قع ومتغيرات السياسة ، ليهوم في متاهات غبية تفقس فى رحم الجهل لتتحول الى طرق مقدسة يسلكها الاتباع .

هل سيرى عائلته ! هل يعانون الان اكثر منه ؟ قطعا ستحملون فا ضل وبؤس تصرفاته ، ليس هناك الان من بديل ، انقضت طائرة على الجسر ....شاهد القذيفة تصطدم بالجسر ويرتفع الاسفلت وقطع الكونكريت والحديد لينتشر كل ذلك على النهر والبساتين المجاورة وعلى جهتي الشارع ، توقف عند مقهى قريب , حاول أن يلملم نفسه وأن يتأكد من عدم معاودة القصف , كان صاحب المقهى

رجلا فى الستين يرتدى (دشداشة) كالحة اللون وسترة عسكرية وعلى رأسه الكوفية العراقية، كان يجلس متطلعا نحو الجسر بلا مبالاة، مسترخيا يواجه شمس شباط المراوغة

كان محايدا ربما لأنه لا يستطيع ان يفهم أو يدرك لماذا يجري كل هذا

ـ أريد شايا ؟

ـ نعم

قلها بآلية ماطا الكلمة وكأنه يستفهم

ـ مع قليل من السكر ، ملعقة واحدة تكفي

ـ لماذا؟ هل انت مريض؟

ـ كلا ولكني لا أحب الشاي زائد الحلاوة

ـ الشاي.

ارتشف خالد الشاي ببطء , كان طعمه لاذعا ، من الواضح انه يغلي منذ مدة ، اليوم لم يتوقف أحد عند المقهى

ـ كم ؟

ـ لا, لا شيء شكرا

ـ ولكن يا عم أنت على باب الله

ـ كلنا على بابه ,من يدري أين نقف غدا.

ترك المقهى وعاود السير ، أعاد المذيع الكلمة لحظ انه قد تمالك نفسه، فقد عاد الى الكلمات المرصوفة والمختارة بعناية من الاسماء المئة والعشرين ولحظ ان الصوت ظل رخوا أجوفا كأنه ترددا لصدى بعيد.

لليوم الرابع القصف يزداد ضراوة واتساعا ولكن الناس بدأوا يأ لفون أصوات الانفجارات وأزيز الطائرات وهى تعبر بحرية الى أهدافها وأصبح باستطاعة بعضهم أن يتعرف على نوع الطائرة من صوتها ،وعاود الاطفال لعبهم

وضجيجهم في الشارع واطمأنت الامهات فعدن للثرثرة مزودات هذه المرة بمصادر الاذاعات

ـ القصف يتحقق بعناية فائقة ! قال فا ضل

ـ ولكن العديد من الصواريخ تضل طريقها، علّق خالد

ـ صحيح لان الرشاشات تنطلق بشكل عشوائي وتتسبب أحيانا بإصابة صاروخ ! فينحرف عن مساره ، عموما القصف دقيق ومحدد الاهداف

ـ الحمد لله ، ولابد أ ن نتوجه با لشكر للسيد بوش

قال خالد لزوجته غدا نعود الى بغداد ، ردت بأنها فهمت ما قصده فا ضل بحديثه .مساء ، العودة هي الأوفق

عبرت ناديه عن موافقتها بأن كانت أول من جمع حاجياته...اما أحمد فقد اسرع . يودع من تعرف عليهم

الطائرات المغيرة تحلق مطمئنة معلنة ان المقاومة الفعلية قد انتهت , على الطريق الصاعد الى بغداد لم يك أحد من المسافرين يستشعر الخوف رغم أن وجوما غريبا يرين على وجوههم , لم تك المشاعر ذاتها عند خروجهم من بغداد, لقد غاب المرح ، افتقدوا روح الجماعة ، كان كل منهم يقود سيارته وكأنه يسير .وحيدا

قالت ناديه

. ـ متى ينتهى كل هذا ؟ الحرب في كل مكان ، حتى في الاذاعات

كانت تلصق المذياع الصغير على أذنها تنتقل من محطة الى أخرى

قال أحمد ـ ليس للأمريكان الحق في أن يقدموا الحرب بالأبيض والأسود , كان عليهم ان يقدموا حربا ملونة سماؤها فراشات وأزهار لأن الانسة منزعجة

ـ لا تسخر لم أ قصد هذا ، كان بإمكانهم أن يجنبونا مشاكلهم ....ما ذنبنا نحن؟

عند الجسر كانت السيارات متوقفة بصف طويل بانتظار دور العبور، نزل بعض الركاب ألاطفال يلهون على ضفة النهر , الفرات حزين ولكنه مغيظ ، صارم بهدوئه وهو يتقدم جنوبا، أحدثت احدى القذائف فجوة أكلت نصف الممر الاسفلتي

...بدأت السيارات تتقدم ببطء شديد تلامس الحاجز الحديد وتلامس العجلة ا ليمنى بقايا قضبان الحديد العارية من الاسمنت .

. ـ انزلوا يمكنكم ا لعبور مشيا , نلتقي عند الجانب الثاني

رفضت فاتن ذلك .....لقد تركته في بغداد عند ابتداء القصف ،عبرا الجسر بحذر شديد , في الجانب الاخر توقفوا لشرب الشاى ثم واصلوا المسير.

ـ غريب !! قالت زوجته

ـ ماذا ؟ ما هو الغريب ؟

ـ غابات النخيل على الفرات

ـ ماذا بها

ـ المشهد كله بالغ الغرابة ،الطائرات ...الصواريخ ....أصوات الانفجارات القادمة من أماكن لا ترى .

كانت كأنها تحدث نفسها ....خالد ، اغلق المذياع رجاء.

ـ هل تصدق أني أرى غابات النخيل ،غابات صبار ....ظلت ،ولسنوات طويلة ، غابات النخيل مرتبطة بمخيلتي بشعر السياب , عيناك غابتا نخيل ساعة السحر ....هل تتذكر؟ كنت تردد هذا دائما ونحن في البستان بجيكور على شط العرب ....كانت أماس رائعة

ـ بدر شاكر السياب ,نعم ، ولكني الان أراه على نحو اخر

ـ كيف ؟

ـ بابا لا تزيد المشهد قتامة . قال أحمد

ـ لا علاقة له بالألوان , تعرفين كم أهوى شعر السياب ، لقد كان عبقريا ولكني الان أعتقد انه واحد من اثنين أحبهما جدا أوصلانا الى هذا

ـ كيف , ومن ؟

- !ا لمرحوم عبدالناصر والسياب

قالت فاتن ـ غريب حقا ألم تدخل السجن عام 1956 حين كنت تهتف لعبد الناصر فى البصرة.

ـ قلت أني أحبهما , ولكن لو دققت بالأمر لوجدت انهما فعلا من اجرى العملية القيصرية لولادة هذا المسخ ....رحمهما الله كانا يخشيان تحولات الصيف والخريف مع اختلاف الدافع ولكن قولي لي ما حكاية الصبار ؟

لم ترد , لاح شبح ابتسامة شقية في عينيها....تذكّر ان الصبار هو الصحراء ...الغموض والمخاطر, أرسل لها قصيدة (من غابة الصبار عدت يا حبيبتي.....لعلني في مقلتيك واجدا مزار)

ـ بابا

ـنعم . قطع عليه الاسترسال ،تطّلع في المرآة

ـ هل تحفظ قصيدة كليوباترا

ضحكت أمه

ـ لازال النهار صباحا ، هل أعدت الدفتر؟

. ـ ماذا ؟ الدفتر! نعم

,شعر بانه أخذ على حين غره

نعم .. قبل الحرب:

قالت ناديه ـ ستؤرخ ايامك بالحرب ,أعدت الدفتر قبل الحرب.....سأستعيره ثانية !بعد الحرب

. ـ أرجو ان تصمتي

يعرف أنها تتقصد إحراجه

الفصل الثاني

بدأ الناس يعتادون الحياة الجديدة , يتناقلون الأخبار عن آخر مواقع القصف ,عن البطاقات التموينية, بعضهم استفاد من علاقاته الخاصة ليحصل على حصص اضافية ،,انخفض سعر الدينار بشكل لا يمكن تصوره , تدنت القوة الشرائية وبدا واضحا ان الفقراء والذين لا يعرفون مسالك السرقة سيزدادون فقرا , تدفقت سلع متنوعة الى السوق , استغرب خالد "كيف تجد هذه السلع طريقها الى العراق." ,قيل انها السلع القادمة من الكويت والتي كانت مخبأة في البساتين والمزارع على جانبي نهر ديالى , , لقد خشي الملاك الجدد من تعرضها للقصف .

ـ من يدري قد تقع ثورة او حركة عصيان واسعه فالتذمر هو السمة البارزة في احاديث الناس والجيش مصاب بالإحباط وبوش يدعو للتغيير.

ـ لعن الله بوش أبو شو ا رب.

كان خضير النجار ، وغمز بعينه الذي كان يتحدث الى ابي شهله الذي راح يمسح شواربه الكثة البيضاء وينصت الى خضير بإذن وبالثانية الى زوجته

ـ كالعادة يقف عند الباب ليتحدث بالسياسة !! لقد اتعبني الرجل.

كانت تتوجه بالحديث الى ابنتها متعمدة رفع صوتها ليسمعها .

شهله طويلة القامة شقراء , موظفة في شركة خاصة تعمل باستيراد المواد المنزلية، لم تك متعجلة على البحث عن عريس , كانت تردد دائما أن فرحتها لم تحن بعد ,لا يشغلها شيء عن زينتها ,تقول ام شهله انها ولدت أنيقة ،

أختها الصغرى" رجاء " رياضية مشدودة القامه اكثر جدية رغم ا ن عينيها الناعستين الخضراوين لم تعطيا يوما هذا الانطباع ، كانت تخطط لغرضها بدقه وبأساليب نسائية ماكرة ولكن خارج الحي .

قالت الام ـ سأزور جارتنا ام احمد . ثم توجهت بالحديث الى زوجها

لا تنسى غلق الباب ورائي ...لن أتأخر عند ام احمد ـ

فهم أبو شهله ما تعنيه , استأذن من خضير ودخل .

ـ حبيبتي ام احمد كيف حالكم وابني احمد كيف صحته و ا لحبوبه ناديه , لكم وحشة صدقيني المحلة بدونكم بلا ناس , كان يعز علي أن أ تطلع الى حديقتكم

ولا أرى ابا احمد على كرسيه ظهر الجمعة يقرأ كعادته . أرجو ألا تكرروا الغياب ،

. ـ شكرا ام شهله ..ونحن اشتقناكم كثيرا ...كيف حال عروستينا

هذه المرأة الثرثارة لن تدعها تكمل اعداد الطعام ...ستتحدث بكل شيء وعن كل شيء, ذهنها محشو دائما بعشرات المواضيع ومئات الأسئلة والاستفسارات ,لا تتوقف عند أمر...فكرت فاتن ... كم هو سريع هذا اللسان كأنه في سباق.

ـ بخير يا عزيزتي ، نحن لم نخرج من البيت !أين نذهب ولماذا نثقل على الاخرين! ابو شهله كما تعلمين مريض ولا يستطيع تحمل السفر، ثم من أين لنا بالبنزين !

صمتت لحظة ثم تابعت

ـ قبل يومين جاءت دلال، المدرسة معك كانت تريد الاطمئنان على صحتكم ,كما جاء شخص قال ان اسمه محمد وترك لكم صفيحة بنزين ,لازالت لدينا أنتم بحاجه للسيارة... .

ـ شكرا سأعد القهوة.

ـ لا تتعبي نفسك ،لا اجد بي رغبة ...من يملك اليوم الرغبة باي شيء

ـ لنذهب الى الصالة

في الصالة استمرت ام شهله بحديث متصل لا نهاية له ,تذكرت ايام الجامعة والمعجبين...تفوقها الدراسي ...أخبار الشارع , تصوري ان ام سلمان الأرملة بدأت تظهر بأساور ذهبيه، تقول أن الخلخال الذي اشتراه سلمان لها يساوي اكثر من الفي دولار.

..... سلمان كان بالكويت أول دخولها , ليس من المعقول انه لم يشارك في-

ـ ام شهله القهوة تبرد.

. ـ لا استطيع تناول كامل الفنجان , لقد بدأت اعاني من الضغط

في المطبخ ارتفع صوت خالد

ـ فاتن ...فاتن...لقد جئتكم ببعض الحاجيات

وضع ما يحمله على الطاولة وفتح المذياع , كانت بغداد تتوعد ...نحن بانتظار المعركة الأرضية

قالت ام شهله ـ استأذن ... أبو أحمد يناديك

في الطريق وهي تجتاز المطبخ قالت

ـ اخوك ابو شهله يسأل عنك ويتمنى لك الصحة

.ـ سلامي له واعتذر لأني مقصر معه ...كان الوا جب ان ازوره

. ـ لابأس ...أنت دائما مشغول ...أعانك الله

أغلقت الباب بهدوء ولكنها شملت الحديقة بنظرة متفحصة ثم حدّقت الى النخلة عند الباب .

ـ ما شاء الله

رددت فاتن في سرها , قل أعوذ برب ا لفلق ....كانت تؤمن ان حسد ام شهله فعّال، خافت على النخلة من صاروخ تائه تغريه نظرة الحسد.

ـ أعانك الله كيف تتحملين هذه المرأة ؟

ـ وماذا افعل ،احمد وناديه يهربان لدى سماع صوتها عند الباب وتستفرد بي وحيدة.

. ـ لا ليس دائما

قالت ناديه

تابعت فاتن ـ اسمع منها اخبار شارعنا بيت بيت , مونت كارلو مشغولة بالقصف الامريكي

قال احمد ـ انتبهوا , كانت تناور على صفيحة البنزين يجب أن نأخذها على وجه السرعة

. ـ أحمد لا تتعجل

.قال خالد ذلك ولكنه كان على يقين انها ستحاول ان تتصرف بنصفها على الاقل

بدا الشارع ضاجا بالحركة ,كان الاطفال يلعبون الكرة ، أمام الابواب وقفت النسوة يتبادلن أحاديث شتى بأصوات تحاول أ ن تطغى على زعيق الاطفال ....بدأت الحياة تأخذ شكلا مستقرا ولكنه مغاير لما سبق ، الناس بدوا اقرب الى بعضهم وأكثر مودة ربما لان عيون(الاخرين) باتت مشغولة بمراقبة طائرات الحلفاء، وانهم يمكن أ ن " يتحرروا" ولو قليلا ومؤقتا من كمية الخوف الساكن .في غرف النوم

كان انقطاع التيار الكهربائي وعدم استقبال الإرسال التلفزيوني قد جعل للحديث طعما آخرا فهو يدور حول همومهم اليومية الصغيرة ، أحيانا يتحول الى ثرثرة . لقضاء الوقت ....تعطلت الاعمال واغلقت الدوائر الحكومية ابوابها

اعتادوا القصف اليومي الذي انتظم بوتيرة شبه ثابتة, فجرا يدوي صاروخان أو ثلاثة ,تهتز المنازل ولكن لم يعد الاطفال يستيقظون مذعورين فاسترخاء الصباح لن يعكره لجاجة الام وهي تهيئ ملابس المدرسة ، بعد الظهر تسمع انفجارات في أماكن متفرقة ولكن هذا أيضا لم يعد بالأمر المثير لقد أصبح الجميع في الشارع رقم 10 على ثقة الان أن الصواريخ لن تطالهم .....كانوا عموما يبدون لامبالاة .واضحة

ـ فاتن , العراق يحترق ,المقصود هو العراق ، الوطن والامكانات

ـ لقد تحول (هو) الى هدف ثانوي, كانوا يقولون إن بإمكانهم اصابة برتقالة في مدينة كبيره ,أنه امامهم فلماذا لا يستهدفوه ؟

!! ضحك خالد ـ يستهدفوه

ـ بابا ...هل استطيع أن أستعمل السيارة ، لن أذهب بعيدا

بعيدا ولا سريعا، البنزين شحيح ـ لا

خرج أحمد مسرعا ....ربما يمكنه رؤيتها , قد تكون في الحديقة ، منذ عودتهم أصبح اكثر عصبية ولأول مره يتجنب المزاح أو المشاكسة مع ناديه ,هل هو !الحب ؟! ناديه ماذا بشأنها ؟

هي لا تستشعر ميلا نحو اي من زملاء الدراسة وتتعامل مع الجميع بحذر , لم تشجع أيا منهم على رفع الكلفة ....استبعدت علاقاتها كليا مع بعضهم لانهم ضيقوا الافق! ,كانت احاديثهم ساذجة وسطحية واهتماماتهم عموما مبتذلة, كانت

تقرأ سيمون دي بوفوار بشغف ,أحبت هذه المرأة المتفلسفة والعملية , الواضحة والدقيقة...قطعا هي تعرف حدود حريتها لأنها تستوعب وبشكل فعّال قيم وأفكار المجتمع ,هنا ك شروط اجتماعية لا تثور عليها ولكنها آثرت أن تتقدمها خطوة واحدة ,المهم السير بخطى ثابتة وبإصرار ....ا لخطوه كافية لأنها تعني الكثير ....هل ستتطور الامور وتضطرهم الى تشكيل مقاومة!!...هي لا تحب الامريكان، لقد تربت على هذا ولكنها ايضا لا تميل الى النظام ....الاثنان يقفان على مسافة متساوية.

كم هو لذيذ أن يستطيع الانسان تحقيق ذاته يمارس مفاهيم واضحة ومحدده ,هل يمكن أن تلتقي بسارتر آخر؟

ـ ناديه اين انت ؟

بابا.....نعم ..كنت أفكر بما قلته لأمي

ـ لقد تذكرت ، جلبت لك كتابا ربما تتسلين به .....انه زمن الحب وزمن الحرب

ـ الحرب ! نحن نتنفس الحرب والان تريد ان نقرأها ايضا

ـ ماما , لقد سمعت عنه انه دراما رائعة

ـ أعتقد ان افضل طريقة لفهم ما يدور هو أ ن نقرأ ....كان أول ما أنزل من القرآن الكريم " اقرأ "

نحن الان في قلب الاحداث وقد لا نستطيع تشخيصها على نحو واضح . ....تجارب الاخرين ستساعدنا

قالت فاتن قاطعة المحادثة

ـ جاء جمال ظهرا ويود رؤيتك

ـ ألم يوضح لماذا؟

ـ كلا

ـ سأذهب اليه غدا ان شاء الله.

نظمت الدائرة دوام رؤساء الاقسام واعفت بقية الموظفين من الحضور كما نقلت مكاتبها الى مبنى آخر تتوافر فيه مخابئ آمنة كما قيل وذلك للحماية اذا ما تعرضت للهجوم.

اصبح على خالد ان يذهب مرة واحدة في ألأسبوع

كانت غرفته تقع في نهاية سلسله من الممرات , حين يلتحق بالعمل يقتصر عمله على استلام البريد والعناية بالرسائل المستعجلة لتبليغها للدوائر الفرعية في بغداد والمحافظات وكذلك للرفيق المسؤول عن التنظيم الحزبي في الدائرة .

كان خالد يتحاشى ما أمكنه اللقاء(بالرفيق)، يشعر دائما نحوه بشيء من الارتياب وعدم الاطمئنان .

يملك الرفيق وجها دائريا ناعم المظهر ....فمه صغير مزموم بشكل يوحي باللؤم ، عيناه أيضا دائريتان بلون البندق حديث القطا ف , صغيرتان لا تنفكان تدوران كأنهما تبحثان عن شيء ما ...شيء يقلقهما وتتوقعان اكتشافه , انه مختبئ ولكن لا بد من ظهوره ، يحس خالد معه انه مراقب ،وان هاتين العينان تحاصرانه تماما كعيني كلب الصيد المدرب على القتل... .

اليوم حضر الرفيق ، أغلق خالد باب غرفته وبد أ يقرأ مجموعه قصصيه لعبد الملك نوري .....سمع اكرة الباب تفتح

ـ ماذا تفعل ؟ تعال الى مكتبي لدي شاي بالنعناع

لم يحييه, كان يسد الباب بجسمه فيما راحت عيناه تدوران بأرجاء الغرفة وتشملان الكتاب بنظره متفحصه

عفوا , سأحضر....اقرء مجموعه قصصيه لم يقل اسم المؤلف فقد يوحي - ذلك للرفيق بفكرة ما

ـ آه ,علمت انك تهوى الادب ....شيء جميل ..... الثقافة لازمة ...ليتني أملك الوقت الكافي

طبعا ,المسؤولية كبيره اعانكم الله -

ـ تفضل

ـ شكرا

تقدمه الى الكرسي الفاخر وراء مكتب بيضوي أسود

جلس خالد على الكرسي المجاور للمكتب وقد بدأ شعور بالحرج يضايقه ....ليس بينهما من اسباب الود شيء وهو بطبيعته يكره مثل هذه المجا ملات

.ـ كيف ترى ما يفعله العدو الهمجي؟

ـ كما ترى ....انهم يستغلون امكاناتهم الجوية فيهاجمون عن بعد

كان حذرا لابد ان يكون الجواب مراوغا وعلى نفس المسافة من السؤال

ـ نعم ولكن ما جدوى كل هذا ، من المعروف علميا ا ن الغارات الجوية لا تحقق الا نسبة عشرة بالمئة من الاجمالي .....مليون جندي على امتداد الجبهة من جنوب الكويت وحتى بغداد , كم طلعه جويه سيحتاجون؟؟ عشرة ملايين ؟

.اعتقد خالد ان الرفيق يسخر منه , تطلع في عينيه القلقتين ,وجد انهما تنتظران

ـ بالطبع مجانين

ـ من ؟

ـ الامريكان

فكر أن الجنون حالة معديه في صفوفهم , لكنه صمم على ألا يترك لحظة شك تراود الرفيق ....تشاغل بالنظر عبر الشباك العريض يرقب جنديا يذرع مكان حراسته ذهابا وايابا

ـ كيف حال عائلك؟

فاجأه السؤال فقد كان خارج السياق رغم إن نبرة الصوت ظلت كما هي مراوغة دونما معنى محدد

ـ بخير عزيزي الرفيق

شعر بأن الرفيق يبذل مجهودا ليحدس ما هي أفكاره الحقيقية

ـ أرجو أ ن تسمح لي حضرتكم

ـ همم...الى اللقاء

ربما يعتقد الرفيق أن الجنود جرذانا تتخندق في جحورها الممتدة في رمال الصحراء تتغذى على الديدان وتكفيها رطوبة الممر الطويل في باطن الارض ويتجاهل انهم ليسوا بحاجة الى ملايين الغارات ، لقد حسموا المعركة منذ اليوم الأول

بغداد تغرق كالعادة في الظلام , بدت الشوارع موحشة ,انتابه شيء من الخوف وهو يتقدم الى ساحة التحرير يبحث عن مطعم ليتناول يعض الطعام ...واجبه ليلا وعليه ان يبقى حتى الصباح , ترائي له المارة على الارصفة اشباحا فقد غابت ملامحهم, كانوا يتحركون دونما صوت وفي عمق الظلمة كان السكون موحشا, فرّ طائر من مخبئه فأحدث حفيف جناحيه صوتا مكتوما، عبر الشارع الضيق بسرعة

على ناصية أحد الشوارع كان مجموعة من الرجال قد تحلقوا حول منقلة فحم كبيره عليها عدة اسياخ شكت بها قطع من اللحم , لم يجد في نفسه رغبة باللحم ....طلب رغيفا من الخبز وشيئا من الخضروات , دفع الثمن وعاد الى الدائرة , دوى انفجار هائل وتبعه انطلاق مئات الرشاشات الثقيلة , كان التلفزيون في غرفة الخفارة الليلية يبث تعليقا سياسيا , وجد أ ن الكلمات غير مفهومة ,تفقد الكلمات احيانا دلالاتها، لا تعود أداة للتواصل او التفاهم .

قال الحارس ـ استاذ ...تسمح لي بالجلوس معك لمشاهدة التلفزيون ؟ لقد اغلقت الباب واذا جاء أحد فانه سيقرع الجرس .

ـ تفضل

ماذا سيشاهد !!! ربما استوحش المكان ويروم تبديد الوحدة والخوف ورعب الانفجارات ، مع الاخرين تخف حدة المشاعر ، تذكر حين حشر في القاهرة عام 1956 ,كانت صفارات الانذار تنطلق بصوت مبحوح يائس ...الستائر الثقيلة على الشبابيك والإضاءة ممنوعة , أصوات الانفجارات تهز الشقة وتختلط بأصوات سيارات الإسعاف .... .

تجمعوا فى غرفة بأسفل العمارة ...ثلاثة عراقيين وعائلة مصرية ورجل وزوجته من السعودية, كان الشعور بالجماعة يعطي شيئا من الاطمئنان ،

لم يسأ ل أي منهم عن اسماء الاخرين ....كان اللقاء مصادفة... قذيفة ضربت العمارة المجاورة فاهتز كل شيء ، خرجوا في البدء دونما هدف محدد بدافع الحاجة للحماية , بقوة الغريزة في المحافظة على الذات ، ثم عادوا للدا خل وكأنهم على موعد .

كان المذيع في(صوت العرب) يزعق بصخب مفتعل،

في الصباح شاهد أشباح البؤس في عيون أفراد الشرطة المحلية المختبئين في منعطفات الشوارع , وكان ينصت الى صوت القهر في تضرعات زوّا ر الحسين , وأخيرا في صوت عبد الناصر المثقل بالهم والمشحون بالبكاء رغم مهابة الشعور بالمسؤولية وروح الكبرياء المقهورة.

قال بيكر.....انهم لا يرغبون بأن يعرفوا ماذا سيحل بوطنهم, ربما تتداخل هنا الافكار والمواقف ، حسنا قد يكونوا راغبين بكل هذا.

قال الحارس ـ عمّي نحن نقول الذي لا يعرف تدابيره حنطته تأكل شعيره.

انتبه خالد الى الحارس يحادثه فقال بشيء من الاستغراب ـ ماذا قلت؟

ـ لاشيىء ....أكلم نفسي

ـ افهم فعلا ما تقصده ...هو كذلك بالفعل ...كيف نواجه الواقع

صمت لحظة ثم سأله ـ هل تعرف فوكوياما؟

ـ لا ليس لدي سيارة ولا اعتقد أني سأشتريها

ـ ولكنه ليس" ماركة " سيارة يابانية

"ـ" بايسكل

ـ ايضا لا.....ت ، فالرفيق ايضا لا يعرف من هو فوكوياما , هو لا يقرأ ....يكتب فقط .

" "ـ يا استاذ ارجو ان تأخذني على "قدّي

فكر خالد ...ولكن أي " قد "الرفيق أم حارس الدائرة

أستغرق احمد بالتفكير ، لقد باعدت الحرب بينهما وفشلت كل محاولات الاتصال بها ، كان يكفيه أن تعرف أنه موجود وأنه يشتاقها.....ابتسامتها المتفتحة كصباح ربيعي ندي مشرق ...كم يهفو اليها ....شعر انه مرهق ومكبّل....عاجز تماما أ ن يفعل اي شيء ...لم يشأ أن يتحدث مع ناديه فهي إما ستسخر منه أو ستتفلسف ....ستجعله موضوعا للمناقشة , جادة الى حد الهزل ,عميقة حتى ليحس معها انه يغرق بمتاهات بعيدة , كيف سيتصرف , لماذا يستمرّ هذا القصف اللعين , متى سيعودون الى الجامعة, ولكن ماذا لو استمرت الحرب وأغلقت الجامعات وتعطل كل شيء ! , كانت كالفراشة الملونة تتحرك بخفة ولكن بهدوء , صامتة رغم دفق

المشاعر في عينيها , ابتسامتها الدائمة الرقيقة والحالمة تضفي عليها جمالا اخاذا ، شعرها الاحمر المسدل على كتفيها يخبئ احلاما وردية .

ـ هل استطيع ان اقدم لك شايا ؟

نظرت اليه باستغراب , كانت تجلس وحيدة الى منضدة منعزلة تقلب صفحات كتاب

ـ لماذا ؟

ـ ربما لان الجو بارد

ازدادت ابتسامتها اشراقا ،انسكب في اعماقه شلال من الضوء الوردي

ـ شكرا

ـ كم ملعقة من ا لسكر؟

ـ ولكني لم أوافق

ـ سأجلب السكر ويمكنك ا ن تأخذي حاجتك

حين عاد كان الكأسان يتصاعد منهما خيط رفيع من البخار

ـ تفضلي سحب كرسيا وجلس الى جانبها , نظرت اليه فيما تلونت عيناها بضحكة مشعة

ـ قلت أ ن تحضر الشاى

فهم قصدها ولكنه تجاوزه

ـ وهذا هو الشاى

ـ أقصد انك لم تطلب الجلوس

ـ لابأس يمكن ان اظل واقفا

ـ لا، يمكنك الجلوس ...لقد اردت التذكير

اذا تأخرت عن المحاضرة يحس ان شيئا ما ينقصه ، وحينما تحضر فان عصفورا فرحا يغرد في اعماقه ويظل يرمقها بين الفينة والفينه , كانت حريصة

أن تفهمه إن هناك حدا يقفان عنده متقابلان .....هل سيفاتحها بحبه ....وجد ان الوقت لم يحن بعد , لازالت علاقتهما في بداياتها ...انه في بغداد هذا المجتمع الشرقي الذي يترسب في وجدانه الحب الهامس ....كان يسمع ابيه يردد....او شرفتان راح ينأى عنهما القمر....ولكن لم يدرك ما كان يعنيه هذا إلا الان ....غموض آسر وحيرة

عميقة واشراق يلوح من بعيد، الى ان يفيق في عمق النظرات الهادئة والساحرة ...كل الاشياء تتغير الوانها وصورها عندما نحب ...تبدو زاهية ورائعة ....دقائق الاستراحات التي تتخلل المحاضرات لا تكفي لإيجاد فرصة ملائمة لخلق علاقات وطيدة بالإضافة الى أن العديد من زملائهما قد يشاركوهما الحديث أو قد يجلسوا على نفس الطاولة ربما من باب الفضول

ـ اعتقد أني سأتقدم باقتراح سفره الى الحبانيه أو الثرثار قبل امتحانات نصف السنه .

كان يدرك ان عليه ان يحسم امره وينتزع منها اعترافا بالقبول بعلاقتهما قبل انتهاء العام الدراسي ...انهما في السنة الاخيرة وقد يفترق طريقاهما بعد التخرج .

ـ كما ترى

ـ هل ستأ تين ؟

ـ تبدو واثقا انك ستحصل على الموافقة

ـ تعلمين أني عضو لجنة النشاط الاجتماعي واني استطيع اقناع اللجنة ...العمادة لا تعترض.

ـ لا ادري ....في العادة الوالد لا يحبذ اشتراكي في السفرات .

ـ ولكنه لا يمانع

ـ نعم

ـ اذا سأحجز لنا مكانين في نفس الباص .

لم ترد عليه وشعر بالفرح يغمره

كانت السفرة ساعتين على مقعدين متجاورين , وست ساعات في الحبانيه ....كانا متلازمين ....تحدث عن عائلته , عن اهتماماته ، كانت تنصت وكان يحاول ان يلمس يدها وان يعطي ذلك طابع الصدفة .

ـ اعتقد انك تدركين مدى اهتمامي بك

ـ واضح

ـ وقد تسألين نفسك ثم ماذا؟

ـ طبعا

كانت اجاباتها المختصرة غامضة تلقي في نفسه ظلا من الشك الذ ي يدفع الى الاحباط ....لكنه لم ييأس ...اندفع بتصميم ولكن بتؤدة الى هدفه

ـ سأقول لك مباشرة ما اريد.

اسهب في الحديث وكأنه يريد أن يسد عليها كل المخارج التي قد تؤدي الى الزوغان

ـ احمد ....لقد سألت نفسي منذ مدة عن طبيعة علاقتنا ، وفي الحقيقة فاني أجد نفسي أستلطفك وبعبارة اكثر وضوحا اميل اليك....وأعتقد اننا يمكن ا ن نبدأ حياة مشتركه

ولكني أرى ان نترك كل شيء حتى التخرج-:

ـ وعد

ـ نعم وعد .

.

اندفعت ناديه الى غرفته وهي تتذمر بصوت عا ل

ـ ما هذا ....متى ينتهي هذا الكابوس , تصور أ ن؟؟؟؟

انتبهت الى انه مستغرق بعيدا , غيرت لهجتها وقالت

ـ افضل طريقة للتخلص من مآسي الواقع ، أن يفتش الانسان في داخله ....ذكريات، جوانب جميلة يحلم بها

ـ صحيح

قالها بتسليم مطلق لأنه يدرك ا ن الحديث مع ناديه لن يكون سهلا واذا ما كانت مصممة فهذا يعني انها تريد الدخول بمناقشة طويلة

ـ هل رأيت آما ل؟

ـ كلا ، ولكن لماذا تسأ لين؟

ـ لأنك تهرب الى ذكرياتها , حسنا هذا رائع ،هل تعلم ماذا تقول دي بوفوار عن الحب

.ـ اسمعي لا اعلم ولا أريد أ ن اعلم

تشاغل في البحث عن محطة في المذياع ،ارتفع صوت فؤاد سالم , من كذبك نشفت الشط

.قال احمد : ونشّف دمائنا

كان جمال يرقص وسط الصالة أمام ا لمدعوين في منزله ليلة رأس السنه ، في يده كأس وسكي ممتلئ من دون ماء أو ثلج .

ـ كلنا نصير " هوش " على عناد بوش

كان اشبه بمهرج يشاكس الجمهور بقصد استثارتهم يضرب الارض بقدمه بقوة ويضغط على مخارج الكلمات ، يريد أ ن يفهم اصدقائه المعنى الرمزي لأهزوجته.

حين ذهب خالد اليه بناء على طلبه كان في المطبخ يساعد زوجته على تنظيف سمكة كبيرة قال انه اشتراها من الناصرية .

كانت زوجته ممتلئة ...قصيرة أبرز ما فيها قوة تبدو في ملامحها القاسية وانف كبير كانه وضع خطأ , كانت تحقق ذاتها في المطبخ وتشعر انها في مملكتها حيث لا ينازعها أحد حقوق التصرف المطلقة، جما ل يقول انها محرك سوفييتي جبار يشتغل اربع وعشرين ساعة وبكل الظروف ولكنه لا يتمتع بأية مزايا من روح العصر ، ليس فيه لمسة جما ل او رقه .

ـ أبو احمد ، نهاية الاسبوع القادم رأس السنه , نحن بحاجة الى شيىء من الفرح ...لن نستطيع الذهاب الى جمعية الاقتصاديين ولا الى نادي المنصور, السرور

يحتاج الامان , دعوت الاصدقاء فقط وبالطبع انت منهم .....أرجو الا تعتذر ، يمكن أ ن يحضر الاولاد ايضا , نكون سعداء بوجودكم انا والعائلة كلها.....كل شيء قد تم تجهيزه ، تذكر الحضور فقط

كانت طريقته بدعوة اصدقائه اشبه ما تكون باستعراض حاذق لمهارات زوجته ولكرمه الذي يحاول ان يضفي عليه بساطة.

في مقهى" جزيرة العرب" تعرف عليه خالد ....كان يجلس قريبا من المدخل تهتز بطنه دافعة الطاولة وهو يقرقر بالنارجيلة ويتطلع الى المارة بفضول ، كان

من الواضح انه يعرف جميع الرواد الذين تزدحم بهم المقهى وانهم يعرفوه جيدا .....فيما بعد تعرف خالد على ميزة فريدة لدى جمال ,انه يحفظ الاسماء بطريقة

عجيبة ....يستطيع أ ن يحدثك عن مئات الاشخاص اللذين التقى بهم ,تاريخهم ومشاكلهم وعملهم ، بالإضافة الى انه كان قادرا على تحديد مكان انحدار اي شخص من لهجته ، حتى وان اختلطت تهجينا بلهجة اخرى .

يزوغ من عمله القريب من منطقة" علاوي الحله " في الكرخ ويستقر في مقهى جزيرة العرب يشده اليها وجود سوق كبير للمواشي يأتيه الفلاحون من القرى المجاورة ، يتفرس في الوجوه وكأنه يبحث عن شخص ما وقد يترك النارجيلة ليساوم فلاحا على خروف او بقرة ولكنه في النهاية لا يشتري شيئا، ولكن بالمقابل يكون قد عرف كل شيء عن البائع .

جلس خالد في المقهى وطلب شايا .... جاء ليشتري سمكا من" الشِريعة " في الصالحية اعتاد ان يذهب والعائلة الى المزرعة بعض ايام الجمع وحينما لا يكون ملزما بعمل ما .

! ـ الاخ جديد على المقهى

ـ نعم

! ـ من سكنة بغداد

لفت السؤال انتباه خالد... لم يقل من بغداد

ـ نعم ، في المنصور

نهض جمال من مكانه ساحبا النارجيلة وجلس على الكرسي المجاور

ـ أخوك جمال موظف , هوايتي النارجيلة ومقهى جزيره العرب وتستطيع القول اني مدمن حضور , فانا هنا منذ اكثر من ثماني عشرة سنه, منذ ايام الدراسة ,هذا المقهى وسوق الموا شي وازدحام المنطقة يذكرني بالناصرية

ضحك ملا طفا وتابع

ـ لا تصدق انها الشجرة الخبيثة ...دعاية استعماريه وقد تكون صهيونية من يعرف! فأبونا ابراهيم من هناك, ثم, أليس كل شيء ممكن ؟

تلفت حوله بجدية مبالغ فيها ليعطي لحديثه طرافة مازحة واستمر

ـ بالمناسبة ما هو الفرق بين الاستعمار والإمبريالية ؟ سألت مرة استاذ الاقتصاد فتحدث لمدة نصف ساعة ولكني لم استطع ان افهم بشكل واضح الفروق الاساسية، ارجو الا تؤاخذني ، استطيع ان اجزم انك رجل مثقف ...لا تعترض،ان وجهك يعطي هذا الانطباع ،أنا فلاح نفس اللجاجة والتبسط واللف والدوران , أ نت لم تتحدث بشيء وانا كنت ا لشراع والمجذاف , آسف , قطعا لديك " شغلة " دفعتك للمجيئ هنا !

ـ نعم في الحقيقة جئت اشتري سمكا ولم أ جد طلبي ، قال احد الباعة ان اعود له بعد نصف ساعه

ـ ها.....ضاعت ولقيتها , أنا أحسن خبير سمك في بغداد كلها ,اسمح لي أ ن أساعدك

أشار الى عامل المقهى

ـ حسين.... لا ترفع النارجيلة ....الشايات على حسابي ,سأذهب مع الاخ الى الصالحية , اذا سأل عني أحد دعه ينتظر فسأعود!

كان بالفعل خبيرا بالسمك وبأسعاره وبالباعة ايضا

ـ لم اتعرف على الاخ ,لا تنسى قلت لك اني فلاح!!

ـ خالد البصري موظف ايضا, في دائرة التصدير

ـ هل تعرف العبيدي ..انه صديق قديم.... قبل اسبوع كان عندي في البيت ....اذا احتجت لشيء سأكون مسرورا بمساعدتك

ـ شكرا

ـ سأزورك في الدائرة قريبا , العبيدي كلفني بخدمة صغيرة لزوجته , سأوصلها له الاسبوع القادم , أعني الخدمة

ضحك للطرفة التي اعتقد انها موارية

. ـ لقد سرني التعرف عليك

بعد ثلاثة ايام كان في مكتبه

ـ كيف كانت السمكات ؟

ـ لقد دعونا لك بالمرفقية ،رائعة ومكانك خال

ـ لا اخلى الله مكانك يا أبا احمد....خيرها بغيرها .....هل ستحضر الجمعة الى المقهى .

ـ كلا فأنا لست من رواد المقاهي ...ولكن كيف عرفت اسم ولدي؟

ـ بسيطة الذي يسأل يتعرف ليس هذا هو المهم ....ما دمت لن تحضر الى المقهى اذا تشرفني في بيتي ..

حاول خالد الا يلتزم بموعد محدد ولكنه أصر

ـ الجمعة القادمة , سأحضر لاصطحابكم لضمان عدم اضاعه وقتكم بالبحث عن الدار

ـ ولكن

لم يدعه يكمل أ قسم كالعادة بالطلاق , تحرج خالد ,رفضت ناديه الذهاب , فاتن قالت انها لا ترتاح لمثل هذه العلاقات , اما احمد فقد رأى ان الامر لا يخلو من طرافة وانه سيحضر

كان لديه ولدين وبنت ,الكبير هاشم طالب في الكلية العسكرية , هادىء يبدو عليه انه انعزالي ....كتوم , كان شديد العناية بأناقته , أما الصغير فقد كان في السادسة ,يصر ا ن يرتدي (دشداشة) رصاصية وصندلا ازرق .....لم يك يبدو عليه شيئا من الذكاء ,البنت كانت شقراء جميلة , مهيئة لتكون ربة بيت , كانت تقف على طاولة خشبية تساعد امها في غسيل الاطباق في المطبخ

الصغير كان يحضر لدقائق، ثم يهرول الى الخارج

قالت الام

.- جمال ...نادي صادق ليجلب الصينية من بيت أم عامر

كان صادق في الشارع مع مجموعة من الصبية يلعبون الكرة ...لم ينتبه لنداء ابيه.

زعق جمال - بطيحان

توقف الطفل مشدوها ، كرر جمال

- أنت .... بطيحان تعال بسرعه

حضر غاضبا يزم شفتيه زعلا يجاهد ان يكتم ثورته أمام الضيوف، اعتقد خالد انه زعلان لان ابيه قطع عليه استمتاعه باللعب مع أصحابه

- ستعود الى اللعب ...لا تزعل

- لا لست زعلانا على اللعب ولكن ابي سيتسبب بإعدامي

- اعدامك ...كيف؟

استغرب خالد وقالت فاتن

- يا ساتر

رد الطفل - الجميع يعرف من هو بطيحان, كنا في المدرسة اذا خاصمنا احدا نناديه بطيحان.....قالت المديرة من ينادي زميله بطيحان سنرسله الى السجن وقد يعدم

خلال سنة توطدت العلاقة بينهما ,ساعده في العديد من المهام ,بناء لأجراء ترميمات في البيت ....فلاح للحديقة ...خادمة للمساعدة في اعمال البيت ....فسيل نخل ...باب حديد ....مصلح كهرباء ....كانت لديه معرفة بأصحاب الحرف وبالباعة ولديه معلومات متنوعه مفيدة وعلاقاته متشعبة على نحو مثير للدهشة , كيف يستطيع ادامة علاقات بهذه السعة , انسياقا مع اسلوبه أ صر على دعوتهم لحفلة رأس السنة

كان احمد قد بدأ يألف الجو يتحدث الى شاب بجواره عن الدراسة ، فاتن كانت تتسلى بتناول المكسرات وتستمتع بأحاديث النسوة عن الازياء ،الطبخ ,تربية الاولاد ،الصواريخ وبوش أبو شوارب

قالت ام هاشم ـ صبيحة اعتذرت لان ابن اختها أصيب بشظية في معسكر التاجي , خساره ! تملك صوتا جميلا

علق احد الحاضرين: ـ المشكلة لا احد يعرف متى سوف ينتهي كل هذا , يبدو اننا نلعب كهواة

رد آخر:ـ في الحقيقة الموضوع اكثر تعقيدا , لقد اصبح الوهم واقعا وجرى كل شيء وفقا لمعطياته , من هنا فأن كل ما يجري هو عبث لأنه باختصار بلا جدوى، هل لاحظتم انه رغم الرتابة في حياتنا فأننا كمن يستنزف , لا تنخدعوا بالإيقاع النمطي الثابت .

قالت ام هاشم ـ لم افهم شيئا

ـ قالت امرأة :ـ الطائرات " خري مري "أين الوعد بانها لن تدخل؟

علق جمال ـ وعود

قالت امرأة بلهجة متهكمة ـ سيدي لن تدخل ذبابة

قال جمال ـ صحيح ولكنه لم يعد بعدم دخول صواريخ كروز ....على اية حال ادعو أ ن يخلصنا الله من بوش ابو البلاوي !! وانا سأصلي لله حين أرى تاتشر بعد الحرب تبيع (الفرّارات) يوم الجمعة بسوق الغزل في جانب الرصافة

دقت الساعة الثانية عشر ، أطفئت الشموع والمصابيح النفطية وصرخ الجميع فرحين....سنة جديده ....انشاء الله سنة سعيدة .....دوى انفجار شق سكون الليل وعمت الظلمة

ـ دارت السنة على صاروخ. قا لت فاتن:

قال احمد ـ السنة القادمة ستدور على شوارب بوش

وقف جمال وسط الصالة ثم انحنى بطريقة مسرحية ـ لقد شرفتموني بالزيارة وهذه السهرة الجميلة التي ستظل في ذاكرة التاريخ رغم شوازكوف , وطائرات

الحلفاء العرب ....والان أدعوكم الى المائدة ....فقد لاتتاح لنا مثلها في السنة القادمة .

.. ـ ام احمد

كانت أم شهله تنادي من خلف السياج المشترك ، ترفع رأسها متطاولة ، في يدها شمعة يتأرجح ضوؤها على وجهها فتبدو كفزاعة عصافير بشعرها المنكوش وسحنتها المتعبة .

ـ خاله أم شهله , ماما ليست في البيت

كانت ناديه ترد وهي تقف خلف شباك المطبخ

ـ وابوك ؟

ـ لا يوجد غيري كلهم خرجوا ...هل استطيع مساعدتك ؟

ـ في الحقيقة كنت اريد احمد ليساعد عمه ابو شهله في ربط وتشغيل المولدة الجديدة

ـ هل اشتريتم مولده ؟

ـ مولده صغيره لمساعدة رجاء على المذاكرة ....المصباح النفطي يتعب عينيها وهي مصرة على مراجعة المنهج .

ـ يمكن أ ن ترتاح الليلة وغدا سيأتيكم احمد

ـ تصبحين على خير ...اذا احتجت لشيء نادينا ....كيف تركوك وحدك

كان الظلام كثيفا , تبدو أشجار الليمون والبرتقال على امتداد سياج البيت كأشباح سيئة الطالع تراوح مكانها في حين بدت النخلة وكأنها تتطلع نحوها بصرامة يتحرك سعفها منذرا فتصدر اغصان الليمون الوارفة حفيفا ناعما معلنة الطاعة ولكن النخلة لا تنخدع بمظاهر الاستكانة ،

السكون العميق وعتمة الليل يضخمان الاحساس بالوحدة ويبعثان شعورا غريبا بالانكماش، شعرت بانها تشتمل على العالم وأن كل شيء ينضغط ،لم يعد للعالم الخارجي من وجود.

تأكدت من أن باب المطبخ محكم الإغلاق ...لم تستشعر الخوف...كانت تتصرف بحكم العادة ...على الجانب الاخر سمعت ام شهله تنهر زوجها ألا يخرج لان الجو

بارد وصحته لا تحتمل انتكاسة وهو في فترة النقاهة ...لم تسمع رد أبي شهله .....أين يتحرك " المحترم " الان ! ، دوّى انفجار حاد بعد ان اضاء بريق خاطف صفحة السماء ...سمعت خشخشة الشباك وهو يرتجف ...صرخ طفل معولا ،

عادت الى غرفتها وأشعلت شمعة احترق نصفها , فتحت المذياع وراحت تبحث عن شيء ما يسليها , يبدد بعضا من هذه الوحشة المقيتة ...تصور لها الظلمة عوالما غريبة , تحاول أ لا يشتط خيالها في هذا الجانب كثيرا، لو كانت امرأة مثل دي بوفوار هي التي تحكم ؟ ! كانت تتابع كل شيء عنها ...فكرها ...نشاطها السياسي ...هل قرأ " المحترم " التاريخ حقا كما يدعي ؟ واذا كان قد قرأه فهل استوعبه ....ماذا تعني كل هذه الاخطاء ...لماذا يكره الاخرين

""تمتمت ـ ان افضل رواية استوعبها على نحو فذ هي " العراب

لم تجد في المذياع غير تحليلات سياسية مبرمجة ...بغداد كانت تتحدث بلغة ساذجة، كانت كأنها في حفلة دراويش يحيون ذكرا ....ممثل الخارجية يعطي انطباعا بأنه مشروخ يخفي وراء عنجهيه شخصية ضعيفة وذليلة.

في الكلية تعرفت على حركات الطلبة ....حاول بعضهم دعوتها لتنضم اليهم ...قال بانها بحاجة الى برمجة فكرية , وتنظيم امكاناتها، حينها قد تتقدم ....رفضت كانت الحجج باهتة ..وتظل السياسة اسيرة حسابات سقيمة ...ستظل تشعر بحريتها طالما لم " تنتمي"...دي بوفوار كانت محكومة بالاحتلال الالماني ولهذا التحقت بالحزب الشيوعي ....لم يك ذاك سياسة ..كان ردة فعل طبيعية ...اما هي فانه يمكنها ان تأخذ جزئية ولو صغيرة من كل فكرة ....حقا هذا موقف توفيقي ...ولكن ما نحتاجه هو فعلا الفكر التوفيقي .

قال والدها ان عليها أن توظف امكاناتها الفكرية بدراسة مخططة للفلسفة والتاريخ و مثل هذا المدخل سيعطيها قدرة على اكتشاف الحقيقة ...قد توافقه على هذا ولكن ...هل السياقات العامة بحاجة الى مثل هذه الجهود ؟ ...نعم لنفسها على الاقل ...للمستقبل الذي يظل شاخصا رغم كل شيء ...الكلمة لا تموت بالإعدام.

الازمات المفتعلة ...الحروب .....وكل الاشياء الاخرى الخرقاء ....لقد عاش ... نيرودا ....عاش غيفارا.....اما الحكام فقد ماتوا

الاستاذ... اين تضعه في زخم كل هذا .....سيارته مسدله الستائر .....زجاجها ملون ....اية حكايات غريبة ....(.قوّادوه) مهذبون فقد علمتهم حياة المذلة نعومة مستكينة سرعان ما تنقلب شراسة قاتلة

أضاءت مصابيح السيارة مدخل البيت وسمعت صرير الباب الحديد وهو يفتح

ـ لازلت صاحية.....قال احمد

ـ يعني ...كيف كانت سهرتكم ؟

ـ بين بين

ـ اشك في ذلك

ـ لماذا.....كانت فعلا مسلية

ـ غريب

ـ آه فهمت

قالت امها انها كانت على اعصابها .....يورطها خالد دائما بمثل هذه السهرات الثقيلة

ذهب كل الى فراشه ....عادت الى الاسترسال مع افكارها ....أين هي وداد الان هل ذهبت مع الصديقات الى الملجأ ام ظلت في البيت ... قا لت وداد وهي تزورها مساء

ـ لماذا لا تأتين معنا , تقولين ان اهلك سيذهبون لزيارة اقاربكم ,لماذا تبقين وحدك؟ ,انها فرجة ....رائحة (الدولمه) تفوح في القاعات , طوال الليل يعرضون احدث الافلام العربية ....استطيع ان اقنع والدتك .....سأذهب وحدي.. اخي في الجبهة وامي مريضة وابي يجد في شتم كل المسؤولين هواية ....انه يشتم المجموعة كلها

قالت ناديه ـ آسفه أفضل ان ابقى في البيت

حين خرج الجميع حاولت ان تقرأ .....لم تستطع الاستمرار ...عاد اهلها مبكرين ...غفت وهي تحلم بايام اخرى.....عند الفجر استيقظت على صوت انفجار هائل ...كان الانفجار قريبا الى حد انها احست البيت يهتز وخرجت امها تتفقدهم ..... ياستار....الحمد لله ....عاودت الاغفاء ...اذاعة بغداد تتحدث عن ملجأ العامرية . .ذهبت وداد والى الابد

تناول احمد طعام الافطار ساهما ، كانت الساعة العاشرة وشمس شباط دافئة تبعث على الاسترخاء وهي تصافح وجوههم عبر الشباك المواجه للحديقة في المطبخ، ,رائحة لذيذة تنتشر .....الخبز الساخن وبخار الشاى ...للشاى طعم لذيذ مع "القيمروالكاهي " ,يذهب أبوه مبكرا يوم الجمعة ليؤدي صلاة الفجر ثم يعرج على محل ابو علي الذي يكون قد هيأ له الطلب , كانت رقائق الكاهي المنقوعة بالشيرة طرية تطويها ناديه ،قطعا صغيرة وتتناولها بطريقة أنيقة ....ترفض ان . تأكل معها شيأ من القيمر

تعايشت بغداد والقصف اليومي المستمر واصبحت اخبارعبور الصواريخ الى .هدف ما شانا لايثير الاستغراب

قال :ـ أ بو شهلة ـ لقد قصفوا اليوم وللمرة الثانية منشاة المثنى ...الامريكان يعرفون خرائط الموقع ....ا ليوغسلاف اعطوهم الخرائط لان الشركات ..... .اليوغسلافية هي التى قامت ببناء القواعد العسكرية والمنشئات الصناعية

كان يتحدث بحيادية وكأن الامر يخص " الجيران"، كيف بدأت التحولات ؟

هل يستطيع اليوم ان يرى آمال ,سيعاود الذهاب ....يدور حول بيتهم بالدراجة ....هذا اسهل وسيوفر نصائح ابيه وملاحظات امه ....ناديه اصبحت اكثر انطواء وصمتا ....يعرف ان هذا ليس سلوكها ، هي صاخبة حين تمزح او تعلق على احاديث ام شهله او دعوات جمال,هل اصابتها تحولات الفصول الأربعة هي . أيضا

كانت ناديه تتحدث الى امها , هادئة لامبالية, لم تلتفت اليه فيما راحت امه تجمع . الصحون لتضعها في حوض الغسيل ....كان ابوه قد غادر الى عمله

شعر أن للجميع همومهم ....حتى الناس في الشارع منكفئون وكأن ذلك قطيعة من نوع ما مع الواقع .....الطائرات المغيرة ...دوي الصواريخ ....سيارات الاسعاف والسيارات العسكرية التي تخترق الشوارع الداخلية تحدث ضوضاء صاخبة

....انقطاع التيار الكهربائي ....توقف كافة الخدمات ...تناقص وسائط النقل بسبب عدم توفر البنزين.....اختفاء الادوية ....كانت كلها أحداث في كوكب آخر ....يتقبل الناس هذا النوع من الحياة بتسليم غريب .....قال محمود..حسنا ..قد يقع زلزال وقد تتغير حتى مواقع الانهار

ـ ناديه ....هل تسمحين لحظة

. سحب اخته الى غرفته

علقت امه وهي ترى مظهر الجد في سلوكه

ـ بين الحبايب مشوره هذا صدق لو "قشمره"

ـ في الحقيقة

ـ اية حقيقة .....استطيع ا ن أخمن همك ....يا اخ انت كتاب مفتوح

ـ حسنا ايتها الوجودية البغدادية الصغيرة

ـ مكانك احمد .....انا بصرية ....من اباء النخل من فيض العطاء .....ومن الشط ومن تلك السماء

ـ طيب ، لم اشتم العنب الحامض , كالعادة أخذيتني الى ساحة اخرى

قالت متخابثة ـ لا علينا , ألا زا ل الدفتر ذو الغلاف البني يشغلك .....شبر ماء وتجاهد للخروج ...كيف سيكون حالك في شط العرب ....حسنا هذا على سبيل المثال مرة اخرى لا علينا ، لدي صديقة على علاقة وطيدة بأختها ....هل تستطيع الانتظار حتى الغد ؟

قال بعجالة ـ لماذا ...نحن في اول النهار وسأرافقك حتى بيتها

ـ بيت من صديقتي أم... !!....يا أخي ماذا سأقول لها .....يجب ان نفكر بهدوء ....عذر مقبول ومشروع لزيارتها ....هل فهمت ايها العاشق في الوقت الضائع

ـ ماذا اقول .....اذا استخدمت لغتك .....ليس امامنا الا ان نفكر بالأشياء الصغيرة ....ألا تعرفين أنه ممنوع من الصرف التفكير بالمستقبل

ـ جميل يبدو انك محشو ....لنبقى في قضيتك لان هذا اسهل من قضية الشرق الاوسط.

في اليوم التالي جاءته رسالة ....امسك بالورقة بيد مرتجفة ...تطلع الى الكلمات ...الى الاحرف الناعمة ...غمره انفعال آسر

عزيزي احمد

أرجو أ ن تكون بخير سوف نلتقي قريبا , سوف نعود للجامعة قبل نهاية السنة الدراسية لنؤدي الامتحانات على الاقل .....قالت صبا انك تأمل أ ن نلتقي , آسفة جدا لان هذا غير ممكن ...اعتن بنفسك ....اطمئن .

آمــا ل

ليس هناك من وعود كبيرة ولكن كان من الواضح انها حسمت الموضوع ...هذا ينسجم مع شخصيتها، لقد اصبحت علاقتهما الان محددة وواضحة

قالت ناديه ـ هل اطمأن العاشق

ـ لا تسخري

ـ أنا لا اسخر ...أتحدث عن حقيقة موضوعية , انظر الى وجهك في المرآة وستجد إن ما أقوله صحيح

ـ شكرا

..... ـ لا شكر على واجب

ربتت على كتفه تم اردفت ـ ماهي الخطوة التالية ؟

ـ انتظر أن ينتهي كل هذا ونعود الى الجامعة

ـ ثم

ـ لا ادري ولكن لننتظر

ـ اخي قنوع !.....لم اكن اعهدك هكذا

ـ انت تعرفين انه ليس بالإمكان عمل الكثير

ـ الحالة الممكنة ....الجدلية الفاعلة هي أ ن يكون هناك عامل واحد متغير ضمن ثوابت عديدة

ـ ناديه ....انا لا اطيق هذا الهذر....كوني جادة

ـ جيد

اقفلت الباب ورائها

فتح الورقة الصغيرة المطوية ....شعر ان الكلمات تطير امامه كفراشات ملونة ....قرأ اسمها حرفا حرفا ...يستمتع بجرس الحروف يوشوش أذنيه وكانه يسمع بها لأول مرة ....شلال من النور المبهر يتخلل اعماقه برقة وعذوبة وشفافية

كان الباب يطرق بعنف غير معهود , تطلعت فاتن ،كان عسكريا يقف عند الباب . , بامتداد السياج كانت شاحنة عسكرية مغطاة

ـ اللهم اجعله خيرا ....تمتمت فا تن

ـ نعم

ـ هل استطيع الحديث مع احد ...ألا يوجد رجل في البيت ؟

ـ ولماذا ؟

.... ـ لاشيء...في ا لحقيقة, لا شيء جدي

شعرت بان الرجل حائر كمن وقع في فخ

ـ لدي رجاء...طلب صغير

ـ احمد .....انظر ماذا يريد الرجل

ـ هل من شيء يمكن عمله

ـ شكرا ...آسف للإزعاج ....في الحقيقة انا بحاجة الى كأس من الشاى واذا تكرمتم قطعة خبز ....منذ يوم أمس وانا ادور بهذا " المهجوم " ولم يحضر لي احد الطعام ...ربما نسوني ...لقد خجلت من طرق الابواب ولكني لم استطع . التحمل اكثر ...مرة اخرى اكرر اعتذاري

ـ لابأس دقيقة واحدة .....هل تتفضل بالحديقة أم تفضل البقاء بالشاحنة

ـ بالشاحنة.....قد يحضر أحدهم فجأة....ربما لا تعرف كيف يفكرون!...في . الشاحنة أ سلم

أعدت فاتن الشاى على عجل ووضعت في" الصينية " رغيفي خبز وقطعة من الجبن وبضع حبات من الزيتون

صعد الجندي الى الشاحنة يتناول طعامه ,اغمض عينيه وهو يحتسي الشاى

قال احمد يكلم ناديه :ـ قد تكون أي شيء إلا انها بالتأكيد ليست حربا

الفصل الثالث

بضعة موظفين كانوا في مكتب المدير العام ,كان المدير العام عضوا في أحد الاحزاب اليسارية....التحق بفصائل المقاتلين في الأهوار , حين سقطت قيادة التنظيم بيد السلطة قرر ان ينسحب كليا من العمل السياسي , أفاد من العفو العام ومن مؤهله العالي من انكلترا وتخصصه النادر وكفاءته ، فتقدم بسرعة , لم يوافق على الانضمام لحزب السلطة ولكنه لم يحاول أ ن يتخذ أي موقف يمكن أن يعرضه للشبهة ,كان على قناعة بأنهم يحظون بغطاء سياسي من الغرب وكان على قناعة ايضا ا ن الخلل في عمل جماعته سابقا يكمن في استمرار الوقوع بذات الاخطاء والتي يكمن تكرارها في تجاهل الواقع السياسي والاجتماعي والاعتماد على محددات نظرية مسبقة .

كان رغم جديته وحبه الشديد للعمل يميل للنكتة وكثيرا ما يعد مقا لب لأصدقائه يحفظ عشرات النكات عن سوق "مريدي "حيث تجد فيه الدواء المفقود في الصيدليات وكذلك السلع المهمة , كان يتداول النكات التي تتناول احد المطربين الشعبيين , ضحكته قصيره ناعمة متقطعة.

لم يكن يعاني الا من مشكلة ابنه الوحيد ,كان في كلية الطب ، حاد الذكاء ومتفوق في دراسته ولكنه مصر على التوقف عن الدراسة والذهاب الى الخدمة العسكرية! قل لي يا عم ما هو المستقبل؟ الموت على الجبهة الايرانية او على جبهة الكويت ثم ما هو الفرق بين أن اموت غدا طبيبا في الخدمة الالزامية ام جنديا متطوعا؟؟

كان المدير العام على العموم محبوبا ، ليس من السهل ا ن يجد اعدائه ما يمكن أن يوظفوه للنيل منه ، فهو صريح وواضح في احاديثه ، يملك القدرة

على أن يبدأ حديثا ثم ينهيه دون ان يشعرك بانه قد تجاوز اسلوب الحوار الودي ، في عينيه يلوح استفهام خلف العوينات ا لطبية ولكنه لم يكن استفهاما مقلقا.

كان خالد يطمئن له ولا يتحرج في خوض مختلف المواضيع معه , يقول انه يقرأ كثيرا ولكنه لا يكتب الا عندما يجد فكرة ما لتطوير العمل ..

كان معه في المكتب، حينما دخل خالد، موظفان ,الاول حريص على ان ينهي دوامه ليذهب الى مزرعته ، يعتني بالخضروات وعدة مئات من الدجاج البياض, أما الثاني فكان لا يجد حديثا افضل من الشعر فهو يحفظ مئات القصائد لشعراء من مختلف العصور ولكنه كان يكن كراهية حادة لشعر قصيدة النثر.....لقد

استوعبت الشعر الحديث وقبلته على مضض، ولكن قصيدة النثر!"على جثتي ".
.كان يقارن بين نزار قباني واحمد شوقي ,يميل الى شوقي

...يا أخي, كيف يمكن المقارنة...الكلام العذب الصادق لشوقي يلامس القلب :

لم أدري ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطواك

اما شعرنزار

سمراء صبي نهدك الاسمر في دنيا فمي نهداك ما خلقا للثم الثوب لكن للفم

هذا الكلام، لا ادري يلامس ماذا ؟

كنا نستفزه أحيانا فينطلق من طرفة بن العبد حتى الجواهري يعقد مقارنات لانهاية لها

قال المدير العام :ـ ربما سيبدأ الهجوم البري خلال ايام ....لقد استكملت امريكا استعدادها لذلك .

قال خالد وستبدأ المأساة ايضا

ـ نعم ولكن ليس من السهل عليهم اختراق خطوط الدفاع الممتدة من جنوب الكويت وحتى جنوب بغداد ،بالتأكيد لن نكون لقمة سهلة

قال مربي الدجاج ـ استاذ الامريكان بحاجة الى تنشيط ذاكرتهم ...لقد نسوا فيتنام

شعر خالد بان ما يدور هو من باب التمنيات لان الجميع يكره ان تدخل أمريكا ، الثقافة العامة تضع شرطا واحدا للوطنية ...الوقوف بالضد من امريكا واسرائيل, ولكن الموضوع اليوم مختلف جدا , الحديث عن واقع وليس عن اوهام ولا تمنيات

ـ اسمحوا ا ن اخالفكم الرأى ,سنكون لقمة سهلة فعلا ... لقد دمر القصف الجوي كل ما يمكن أن يساعد على رد العدو , كما اننا بدون غطاء سياسي .

ـ ربما فيما تقوله بعض الحقيقة من الناحية النظرية , ولكن حرب الشعوب لا يمكن حسابها على هذا النحو

ـ وهل تعتقد أ ن الشعب سيحارب ؟ وهل هي حربه فعلا؟

ـ حسنا لماذا ندور في نقاش لن ينتهي , كم تعطي للحرب البرية.؟

ـ سنقيس , رغم ان بعض الاخوان يعتقدون أ ن اول من قاس هو ابليس!! خمسة ايام كحد أعلى .

.....ـ وأنا أقول انها ستكون حربا طويلة ومضنية ، ان التقليل من

رنّ جرس الهاتف فتناوله المدير العام : نعم استاذ ...حاضر استاذ سيأتيك حالا ثم التفت نحو خالد , الرفيق يدعوك الى مكتبه

قال الرفيق بلهجة آمرة ـ خالد جهز نفسك للسفر غدا الى عمان ستجد الاضبارة لدى الدائرة التجارية وسيرافقك مسؤول التصدير، لدينا مشاكل مع المجهزين وعليكما أ ن تعملا على وضع الترتيبات اللازمة ، بالطبع الموضوع ليس سهلا وعليكما الرجوع للدا ئرة عند كل قضية في حالة وجدتما ذلك ضروريا ،لاتوجد تعليمات محددة لان الظروف بالغة التعقيد , نحن نثق بكما ولديكما الصلاحيات الضرورية.

كان زميله في السفر مسؤول التصدير عبد الله ,قصير القامة يلوي رأسه يسارا كلما ابدى اعتراضا ,كثير الشك ،دائم الخوف ، ولهذا فهو متردد وكأنه في حالة

من الاستكشاف لا يستقر...ممتلئ ، ولكنه رغم ذلك لا يترك طبق الكنافة في وجبتي الغداء والعشاء ويجد لذة في مص أصابعه التي يتساقط منها السائل السكري

كان على استعداد ان يغير رأيه حتى دونما مبررات مقنعة

ـ ولكن يا أخ عبدالله هذا الاتفاق نتيجة بحث يومين متواصلين فلماذا لم تطرح هذه الاعتراضات؟ من الجهة الثانية لقد وقعنا العقد فكيف سنطلب إدخال تعديلات جديدة

ـ أرجو الا تتضايق المسألة لا علاقة لها بالأيام أو الساعات ...المهم هو انجاز المهمة كما تريد الدائرة من دون أن يأتينا لاحقا من يشكك بموقفنا

.ـ ولكن هذا لا يعني عدم الالتزام بالاتفاقات ، كان يجب التريث بالتوقيع

ـ لابأس لا يوجد نص يلزمنا بعدم التعديل

ـ ماذا سنقول لهم

في اليوم التالي يذهب عبدالله الى الشركة محتجا بان السفارة لم توافق على تصديق العقد ، وان الملحق التجاري يطلب اجراء بعض التعديلات

ـ ولكن يا سيد عبد الله ليس في العقد ما يشير الى ذلك.

ـ صحيح وهذا تقصير , ولكن ، لا يمكن اعتبار العقد نافذا

ـ انت تعلم انكم كنتم تطالبون بسرعة التنفيذ نظرا للأوضاع المحيطة وانا لهذا السبب واحتراما لرغبتكم باشرنا فورا بإجراء الترتيبات مع المجهزين .

ـ نحن نقدر ذلك ،التعديلات لا علاقة لها بأية ترتيبات لشراء البضاعة أو شحنها المسألة تتعلق ببعض الضمانات والشروط الجزائية وشروط الدفع الثا نوية, ...هذه لا تعيق المضي بالترتيبات .

ـ هذا في الحقيقة كثير .....كثير جدا فالضمانات لها ثمن والتي تسميها شروطا ثانوية هي في الحقيقة قضايا أساسية لا نها تتعلق بمواعيد الدفع .

ـ هذه نسخة العقد الجديدة ، تحتاج الى توقيعكم الكريم فقط

بعد أ ن يعود بالنسخة المعدلة فانه يظل يراجعها طوال المساء عله يجد نقطة ما يمكن الرجوع بها اليهم

كانا في عمان حين بدأ الهجوم البري ...في اليوم الاول كان" الاردنيون " شديدو الحماس لا ينفكوا يرحبوا بهما ....كانت ردة فعل طبيعية ...وفي غمرة هستريا التأييد اقسم ابو روحي موظف الحسابات في احدى الشركات انه رأى " صورته"في السماء, كان على السطح حينما شاهدها ...نادى على ام روحي ...الله اكبر ...لقد جاء الفرج , سنعود الى يافا...ظل طوال الليل يصلي ويحلم ببيتهم ، البلكون الكبير يطل على الشارع الرئيس ...المساحة الكبيرة، الأرض وحدها تساوي الملايين الان .

ام روحي ، لن أظل في عمان ولن اشتغل عند ابي رامي سارية من هو أبا روحي.

ـ ولكن يا أبا روحي هل كان با لبيرية العسكرية ام" بالبرنيطة الكاوبوي" تذكر لان هذا مهم جدا في معرفة دلالة الرؤيا

شعر ابو روحي انه محاصر

ـ لم انتبه لذلك ولكني اقسم اني رأيته وا ن ام روحي شاهدته معي

في اليوم التالي لم يصدق أحد ا ن الأوامر قد صدرت بالانسحاب ...في المساء كان التلفزيون يعرض مشاهد مؤلمة عن هذا الانسحاب فعلى الطريق الصحراوي الى الكويت كانت المعدات العسكرية متناثرة , بكى النادل الصغير في الفندق وهو يقدم القهوة ...كان ينشج بصوت عال فيما ران على الصالة وجوم حزين .... كان الغيظ والمرارة يضغطان على السحنات والمشاعر.

شعر خالد بأن الجالسين لا يتعاطفون معه, أراد أ ن يصرخ بانه لم يفعلها فهو موظف لا سياسي ولا عسكري , ظلت العيون تراقبه فلم يعد يحتمل, أحس انقباضا حادا يضغط على قلبة، كان يدرك ان الهزيمة واقعة لامحالة فلماذا لا يستطيع تحمل الموقف؟.

كانت القوات المهاجمة قد التفت على الجبهة من شمال مدينة الناصرية حيث يتقارب نهري دجلة والفرات في منطقة صحراوية مكشوفة تجعل من التفوق الجوي العنصر الحاسم في القتال ....عزلت كل القوات في البصرة والكويت وتمركزت قوات الحلفاء على مسافة ساعتين بالسيارة من بغداد ....كانت آمالهم ميتة حتى قبل ا ن تولد وعمقت المأساة لديهم شعور الاحباط ....بكى عبد الله واحمر وجهه المكتنز ...أحس انهم أهينوا وشعر إ ن مشاعر الذل والقهر تطحنه ....خرجا من الفندق الى شوارع عمـــان ....سارا من دون ان ينبسا بكلمة . ...كان ما يجري ابعد من أي تصور

قال عبد الله أخيرا ـ انه ا لطوفان فأين سنرسو ؟

ـ لا ادري ..هل تعتقد ان أحدا ما يدري

عند باب الفندق كان موظف الاستقبال واجما وقال

ـ هل سمعتم الاخبار ؟ لقد سقطت مدينة البصرة ! ...وكالات الانباء تتحدث عن حالة من الهياج العام في جنوب العراق ...لقد شاهدت على التلفزيون استيلاء الجماهير على الدبابات والاسلحة وكذلك المباني الحكومية

لا افهم ذلك !!هل الشعب العراقي يكره الحكومة ام أ ن بوش هو الذي دفعهم اليه

لم يردا ....ربما يكون الشرح طويلا وبالتأكيد لن يقتنع موظف الاستقبال الذي كان هو الاخر يحلم بالعودة.

في الليل لم يناما , كانا يتابعان الاخبار...ماذا سيبقى بعد ا ن ينحسر الماء .... بوش اصبح المذيع الاول , سنساعدكم ....لم يكونوا حتى بحاجة الى المساعدة ...الحماس للتدمير كان بأعلى حالاته.....لم يكن احد يدرك ان عليه ا ن يلتقط هذا ا لعرض كقناة لتصريف مياه الطوفان , كان مخاضا ولكن كيف ستتم الولادة اصبحت المدن الجنوبية خارج سلطة الدولة ,الامور تتلاحق بسرعة , !!! . الكراهية المخزونة قهرا تتفجر مدمرة قاسية ، قلق ملح يقبض على قلبيهما

قال عبدالله ـ ليس من السهل التصديق ....كان يطالعنا عند كل منعطف ...على صفحات الصحف المعروضة على الارصفة على شاشة التلفزيون كل يوم . تصور انه كان حتى في الخبز الذي ناكله ثلاث مرات في النهار

قال خالد ساخرا ـ كان ايضا في الكنافة الاردنية

نا ما على الارائك في الصالة كان خالد يدافع كابوسا يسد عليه الطرقات ....النيران تشتعل في كل مكان وهو محاصر خلف اللهب المتراقص كألسنة الشياطين ناديه تبكي بحرقة شعرها منكوش وملابسها ممزقة ....فاتن ...عيناها متورمتان يأسرهما صمت مخيف تمد يدها وكأنها تستجدي كانت متعبة تقف بالكاد متوازنة تستند الى النخلة التي اصبحت جذعا أسودا متفحما , احمد يصرخ وكأن النار والدخان والعجز في ان يقدم العون لامه او اخته يسبب له اختناقا فيمد يده الى رقبته وفي عينيه نظرة توسل , أحس انه يسمع اصواتا صاخبة متداخلة تصك مسمعيه

ـ خالد ...خالد

كان يسمع فاتن تصرخ يائسة ...نهض لكنه انكفأ على وجهه فوق البسا ط ....خالد هل اجلب لك ماء؟

كان عبدالله يمسكه من كتفيه

ـ كلا ...شكرا ...كنت اختنق ...الحمد لله

ـ لقد كنت تصرخ هل كنت تعاني من كابوس ؟

. ـ نعم ، لقد انتهى

ـ لقد بدأت، يجب أ ن نعود انفسنا عليها ...لأنها ستتوطن عندنا

صباحا دفعا الحساب وودعا اصدقائها ثم غادرا الى بغداد

الطريق الصحراوي موحش يذكره بالجد ب واليأس والموت الارض ا ليباب حيث تشم رائحة الموت في بقايا السيارات وا لشاحنات المحترقة والمتروكة على جانبي الطريق ....أسرع في القيادة ....سقطت المحافظات الشمالية بأيدي المهاجمين ...ظل عبد الله صامتا حزينا وهو يتابع الاخبار ...عيناه منتفختان من السهر وخداه المكتنزتان متهدلان على صفحتي وجهه ...لو كان قد ظل عند عائلته لما تعرض لكل هذا ا لقلق والشك ...." اللمة "تخفف وطأة المعاناة ...هل ما زال بإمكانهم الان ايضا أ ن يشاهدوا الضحى ، في الحديقة الغافية عند ضفاف دجلة على كورنيش الاعظمية وهو يلون أغصان شجيرات البرتقا ل .

في المركز الحدودي لم يكن هناك تغيير ما ....الوجوه الخطيرة ، المتفحصة والمدققة ، ا لباحثة بكل زا وية عن خطأ ما لتحويله الى مصدر رزق اضافي ، لا علاقة لها با لأحداث ، فما يهمهم هو ألا يؤثر شيء على حركة السفر ! كان عدد المسافرين قليلا ولهذا قاموا بنبش الحقائب وفحص السيارة بعناية فائقة.

ـ هل انتما موظفان ؟

ـ نعم

تجنب استمرار الحديث معه

ـ ولماذا كنتما في الاردن؟

ـ لماذا ؟

ـ لا شيء مجرد سؤال

! ـ لدينا ايفاد رسمي ...هل تود الاطلاع على الامر الاداري

ـ كلا ....ماهذه الاكياس ؟

كانت لهجته مستفزة

ـ هل ترغب بتناول الكولا؟ انها في الاكياس

ـ كلا ...يمكنكم المغادرة

كان عبد الله ممتعضا ولكنه لم يتدخل....حينما تحركت السيارة قا ل

لماذا كنت طويل ا لبا ل معه- :

بدت بناية المر كز الحدودي التي تركاها واحة قياسا بالطريق الصحراوي الذي عادا يقطعانه ، لا يوجد في الصحراء المترامية غير نبات العوسج الطري وبضع مجمعات متناثرة من العليق ...لم يشاهدا طيرا يهوم في الفضاء الوا سع المفتوح ....لم يكن هناك غير غيوم منخفضة تسرع هي الاخرى نحو بغداد ...كانت تختزن امطارها ...المدينة الحزينة تنتظر ان تغسل همومها ...هل تستطيع؟

في الرمادي كانت الحياة عادية ...جلسا يشربان الشاى ...الحركة في الشوارع مستمرة لكن شيئا ما ينقصها

.قال خالد : الحيوية ...هناك امر لا يطمئنهم

بغداد كانت كأنها تحتضر تتنفس ببطيء موحش ، ريح تجري بامتداد الشوارع فتثير الغبار وتدفع بقصاصات الورق والاكياس من جانب الى آخر ...كانت الشوارع فارغة من المارة وحركة السيارات معدومة، عند نقطة التفتيش في أبي غريب تم قطع الطريق بعارضة خشبية وقف عندها عدد من رجال الانضباط العسكري وبضعة افراد من اجهزة امنية مختلفة .....دققا الجوازين وكتاب الموافقة بالسفر ثم سمحوا لهما بالمرور ....لم يبادلوا معهم الحديث كانت وجوههم صارمة رغم ملامح القلق التي كانت مختبئة في نظراتهم السريعة وغير المستقرة

ـ الحمد لله نحن في بغداد الان

ـ ولكنها بغداد أخرى ....كم يلزمنا لنتعود عليها

ـ ستعود...ستنفض عنها الغبار ...سيعود الوجه الصبي حلوا ،نظرا , متألقا .....قطعا سينتهي الكابوس

أعلنت محطة اذاعية بعد ان قطعت اناشيد حماسية كانت تبثها ، ان الحلة وكربلاء قد تم تحريرهما ...اذا فقد عزلت بغداد....كانا يقطعان جسر الاعظمية من جهة الكرخ ...نزلا يمينا على الكورنيش ...دجلة صامت يثقله الطمى العالق بمياهه فيكسبه لونا غرينيا احمرا.... بضعة مقاهي على الشارع الرئيسي كانت مفتوحة ... على الكراسي تناثر عدد من الاشخاص ....كانت عيونهم أخاديد لاصطياد القدر وفي عمق النظرات مصائد همجية لم يترك لها الفزع الا الانتظار في الظلمة التي تعشعش فيها كوابيس لانهاية لها توقظها طرقات الباب الغامضة .لأشباح بلا وجوه

قال خالد ـ لقد بدأت الثورة الانفجارية في الصناعة أواسط السبعينيات ...واليوم في أوائل التسعينيات من الواضح ا ن صناعة واحدة هي التي نجحوا فيها.....انها صناعة الخـــــوف ... انهم كأي منتج مغامر يسوق سلعته ، يملكون التصميم الكامل لتحمل اية خسارة محتملة ...فعلا قد نجحوا واصبح كل شخص على ثقة مطلقة ا ن تحت كل حجر في زاوية مهملة أحد رجالهم !!! ليس من السهل الاطمئنان الى الجار ، في المقاهي أو في المحال العامة عليك أن تتظاهر با لبلاهة لأنك مراقب....كل الوجوه الى الحائط .

انعطفا الى الشارع المفضي لبيت عبدالله ...ضغط عبد الله على زر جرس الباب بقوة وبلهفة ...كانت الستائر مسدله .. اعلنت زوجته انهم في البيت .

ـ مـــــن ؟

أنا عبدالله . ـ

ـ ماما جاء بابا .....افتحي بسرعة

كان صوت ابنته مستعجلا ينبض بالشوق وبالفرحة

طقطقت عدة اقفال ....انفتح الباب وتقدمت زوجته بيدها فانوس نفطي .....ساعده ولداه بأنزال الحاجيات .

كان الشارع صامتا بعيدا عن هدير الضجة الصاخبة في الجنوب والشما ل ، الليل القادم مبكرا يرسم ملامح غامضة للبيوت والاشجار والاسيجة المعشوشبة ... اهتزت الزيتونة عند الباب وهو يوقف السيارة ....ضغط على الجرس ...يبدو أ ن لا أحد في البيت ...عاود الضغط ....لا جواب ...بحث عن المفاتيح ... ادخل السيارة الى الممر وعاد يقفل الباب الخارجي ....سمع ام شهله

ـ من ...من هناك ؟

!! ـ أنا خالد , ام شهله يبدو ان الجماعة في زيارة

ـ خالد ...اهلا ابو احمد ... لا ... العائلة سافرت عند اقاربكم ...جاءتهم خديجة وذهبوا معها... قالت ام احمد انهم سيعودون بعد ثلاثة ايام ولكن يبدو ا ن هذا متعذر بسبب الاحداث

ـ شكرا

فتح الباب وادخل الحاجيات ثم اشعل شمعة على طاولة المطبخ ....بحث في الصالة عما اذا كانت فاتن قد تركت له رسالة ...أشعل المدفأة الغازية ودخل غرفة النوم ليغير ملابسه وليفكر ماذا سيفعل .

السرير المرتب ... الملابس المعلقة بعناية ...الرائحة النسائية التي تشيع بجو الغرفة ....اشعره كل ذلك بالحزن والوحدة .... اين هم الان ؟ النجف محاصرة فهل لديهم ما يكفي ! هل ستستطيع فاتن ضبط احمد وتجنيبه المشاكل ! ماذا لو ضربت الدار بقذيفة من احد الطرفين !!حاول ان ينام ... كان مجهدا ... ليترك كل شيىء الى الصباح ... وجد ان ذلك غاية في الصعوبة ... تصفح مجلة قديمة

استمع الى المذياع ...أدار اسطوانة لهاند ل علّه ينشغل .... اخرج اسطوانة لشوبان ، ربما يحلم مع اللحن الهادئ .... قام الى غرف الاولاد ...فتح غرفة ناديه .... كانت حريصة على ان تعطي الانطباع ان كل شيء في مكانه الصحيح ...لمس الوسادة فشع عطر خفيف ...أحس انها ترقبه ...على الطاولة كتاب علّمت المكان الذي وصلته ... كانت قصة " جاءت لتبقى" لسيمون دي بوفوار ...كانت هناك ايضا مجلة نسائية مؤشر على بعض مواضيعها بالقلم الرصاص وعلى ورقة منفصلة ملاحظات حول الموضوع والاسلوب ... كانت تدوّن ملاحظاتها على متن الكتاب الذي تقرأه وكثير ا ما كان يعنفها لهذا ... كانت تضحك ... حسنا اقسم اني سأفعل ذلك فقط عندما اصبح كاتبة ... هل تعتقد ان الفكرة تظل بانتظاري الى ان احضر الورقة والقلم ....فتح خزانة ملابسها .... كانت دائما انيقة ببساطة ... تصر ان تختار ملابسها , قمصانها مكوية وموضوعة بعناية على رفوف الخزانة ,حتى ادوات مكياجها البسيطة على طاولة التواليت كأنها معرض ينم عن ذوق ودراية، صعد الى غرفة احمد .... تطلع قي الظلام علّه يرى ابتسامته المرحة دائما والعابثة احيانا ...عله يسمع صوته وهو يشاكس ناديه او امه .

يسمع المذياع وبأقصى درجات الصوت ليشوش على اخته استغراقها بالقراءة .

الذكريات تحاصره ...ا لبكاء المخنوق يضغط على مشاعره ... ينفجر في اعماقه شلال من الحنق والغيظ ...ضرب الحائط بقبضته وعاد الى الصا لة ينتظر الصباح ,هل سياتي كاي صباح ؟!

كانت شمس آذار قد بدأت مبكرة .... انسكبت الخيوط الذهبية عبر سعف النخلة الى الشباك واهنة كسولة ، واعطت قطرات الندى ، على اوراق اشجار البرتقال الداكنة الخضرة ، لألاء كرستا ليا باهرا

لازال العالم كما هو يتفتح للحياة !! ...اعطاه هذا الشعور ا حساسا بالتفاؤل .. غسل وجهه وارتدى ملابسه ....اللهم لا نسألك رد القضاء وانما اللطف فيه

ـ من.... خالد اهلا وسهلا تفضل

نادى على زوجته ليخطرها ا ن لديهم ضيف ومبالغة بالترحيب امسك بيده وسحبه الى الداخل

ـ ام هاشم ..الاخ خالد سيفطر معنا

التفت اليه مستغربا ـ ما هذا كأنك لم تنم ... متى جئت من الاردن ؟

ـ امس ولكني فعلا لم انم طوال الليل ...لدي مشكلة ارجو ا ن تساعدني في مواجهتها

ـ بالتأكيد ... ولكن لنفطر اولا

ـ ليس لدي رغبة بالطعام

ـ هل المشكلة كبيرة الى هذا الحد , مع ا لحزب ام مع الحكومة !! ربما مع الداخلية !!

ضحك عند الجملة الاخيرة غامزا بعينه

تناول كأس الشاى ...تذكر فاتن وهي تعلق على طريقة ارتشافه الشاى ...مزاجك في شرب الشاى صباحا ممتع ومشجع كأنك تجد فيه لذة مفقودة وانت تتذوقه بشهية

ـ ماهي المشكلة ؟

ـ الجماعة سافروا الى النجف ... وكما ترى الطرق مقطوعة والمدينة محاصرة وقد يتعرضون لمخاطر ليست بالحسبان من كلا الطرفين ... في مثل هذه

الاوضاع ليس من السهل الاعتماد على حسن النية او الادعاء بعدم الانتماء ... !كل طرف يمكن أن ينسبك الى الاخر

ـ اهدأ ولنفكر .... طريق الحلة ـ كربلاء خطر فالقتال مستمر والمقاومة شديدة ...ليس امامنا الا طريق قلعة سكر ـ الجزيرة ... يبدو انك تعاني صداعا ... قرصين من" البرستمول " ... ولكن قبل ذلك يجب ان تأكل شيئا ...برستمول (سوق مريدي) شديد على المعدة الفارغة

ـ اشكرك ...ولكن كيف سأتدبر الامر بالقلعة ؟

ـ لدي قريب هناك وسأعطيك رسا لة له وسيتكفل هو بأمر ايصالك الى النجف ، هذا اذا كان الطريق مازال مفتوحا ولو كان ذلك بصعوبة .... ارجو أ ن تعذرني لأني لا استطيع مرافقتك فالأمور لازالت حرجة في بغداد وقد يقع ما ليس بالحسبان بأية لحظة

قلعة سكر مدينة ريفية صغيرة تقع على امتداد الطريق الى الناصرية من جهة الشرق وتنفتح غربا على جزيرة "عفك " الممتدة حتى الكوفه ... الشوارع طينية حولتها امطار آذار الى مجار مكشوفة ... ... السوق الرئيسي تصطف على جانبيه دكاكين بائسة لا تمتّ بصلة الى هذا العصر ،كانت كأنها لا ترغب بالتحول من ظلال القرن المنصرم ...تتصدر دكاكينها طاولات خشبية رصفت عليها بضائع متنوعة وميزان حديد ...البائع يقف خلف الطاولة ... يوجد لدى البعض مدفأة نفطية تساعد في استجلاب الدفيء ...كانت السوق عادة ما تنهي اعمالها عند مغيب الشمس حيث ينقطع تردد الناس عليها .....حين وصلها خالد .كان بعضهم قد بدأ بإدخال البضائع تمهيدا للأغلاق

في العاشرة صباحا اوصله جمال الى مجمع النقليات بعد ا ن زوده برسالة الى قريبه ، في المجمع يتكدس الناس على الارصفة أمام أماكن وقوف السيارات ... لم تكن هناك اية سيارة ، وصل "لوري" "... تراكض الناس ليتسلقوا الى السطح ...استطاع ان يجد له مكانا... ظلوا وقوفا اكثر من اربع ساعا ت يتعكز احدهم على الاخر ... كان كل منهم منطويا على همومه لم يتبادلوا الحديث حتى من باب .الفضول

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم

ـ هل من الممكن أن تساعدني في الوصول الى بيت أبو عادل؟

نظر اليه الرجل متفحصا اذ من النادر أ ن ياتي زوار الى القلعة فكيف بغريب في مثل هذه الظروف

ـ ابو عادل ...ابو عادل ...من ابو عادل هذا ؟ هل هو مطلوب ؟

ـ لا يا حاج ،ابو عادل عبد السلام المحسن الموظف فى الاعاشة

ـ عبد السلام ... نعم .. أول فرع الى اليمين ..ثاني باب على اليمين ايضا ...جعلنا الله من اصحاب اليمين

ـ شكرا

حاذر ان ينزلق الى وسط الشارع ...مشى متمهلا يستند الى الحائط ... استدار يمينا

:ـ لحظة

كان صوت حاد برم كانه فض منازعة للتو

ـ نعم

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم ..هل من خدمة

كان الرجل غامق السمرة عيناه واسعتان حادتان طويل القامة تبدو عليه معالم القوة, يبدو ذلك في بناء جسمه المشدود والمنتصب.... كما لاحظ على ضوء الفانوس النفطي إ ن الرجل عصبي حاد الطباع .

. ـ انا من طرف جمال ,أبو ها شم ... لقد ارسل هذه التوصية

ـ تفضل

قالها بلهجة باردة شك خالد معها أنه سيكون العون الملائم

قرأ الرسلة بتمهل ثم وضعها في جيب الدشداشة

ـ لابأس مادامت هذه رغبتك ... لاشك ان السفر خطر فالقتال في كل مكان ...ليس من السهل تفريق العدو من الصديق ! .... أعتقد أ ن الوسيلة الملائمة هي

الاستعانة بسائق من العاملين على الخط ممن ينقلون الجنائز ...انهم يعرفون كافة المسالك ولكن هذا سيكون صباح الغد ...ستبيت عندنا والصباح رباح .

ـ أشكرك كثيرا ....ولكن لماذا لا نحاول الليلة ....خير البر عاجله ...اذا تعذر السفر الان فلا بأس ، نكون قد رتبنا الموضوع وأغادر مبكرا ...تعرف ان الاوضاع لا تحتمل التأخير

جاء طفل في الثالثة ..كان يشبه والده , من الواضح انه الطفل الوحيد ...نظر اليه بارتياب كمن يتساءل عن سبب زيارته .

ـ عادل سلم على عمك

هز كتفيه رافضا ....الح ابوه ...أنت رجل ...مثل هذا عيب

مد الطفل يده ولكنه لم يتفوه بكلمة وان ظلت نظرة الارتياب ترين على ملامحه , حاول ا ن يجامله .

ـ عادل أسم جميل

نظر الطفل الى ابيه متسائلا وجلس بينهما ...الارضية مفروشة بالسجاد المحلي والى الحائط وسائد صلبة محشوة بالصوف ...وسط الغرفة مدفأة نفطية كبيرة،

يسمع أصوات العائلة ...شم رائحة الطبيخ ...الرزالعنبر...تذكر أ يام كانت والدته تصر على أن عنبر" الدغارة " لا يطبخ إلا بالزيت " الحـر " أو بالزبد عندها ستشم الرائحة اللذيذة من سابع بيت ,رحمها الله ,تناهى اليه مشاجرة , ضحكت صبية فنهرتها امها

ـ قلت أن العائلة في النجف منذ أربعة ايام ؟

ـ تقريبا

ـ كيف ذهبوا ؟

.. تجاهل ما يرمي اليه

ـ بسيارتنا الخاصة

ـ بعد العشاء ... سأستدعي أحد السواق الذي "أمون " عليه والله المسهل ...ولكن هل لديك فكرة عن الأجرة ....تعرف انه عادة ما يستغل السوّاق مثل هذه الظروف فيرفعوا السعر ....ربما ضعفين أو ثلاثة .

ـ لن يكون الاجر مهما ...لن نختلف ....المهم الوصول

ـ انشاء الله

أصر على ان يتناولان العشاء اولا وإلا فأنه لن يذهب للسائق

عاد عبد السلام بصحبة شاب في العشرينات ...كان يرتجف ويحاول أن يخفف وطأة البرد بشد سترته الى صدره ....تم الاتفاق بسرعة ووعد بأن يعود في السابعة وعلى خالد ان يكون مستعدا ....اشترط أنه غير مسؤول اذا ما تعذر دخول النجف بسبب القتال الذي يشمل المدينة ومحيطها حتى جهة الفرات ،

هيأ عبد السلام المكان لنوم خالد , فرش بساطا صوفيا وجلب بطانية ووسادة ....سمع بكاء الطفل ووالده يقنعه بعدم دخول الغرفة

ـ عيب عادل ....هذا عمو ...سيذهب في الصباح وسيترك البطانية ...صدقني انه لن يأخذها معه

ـ لا ...اريد بطانيتي الزرقاء ....بطانيتي الزرقاء

سمع امه تضحك ـ عادل سأعطيك حلاوة ...حلاوة نهر خوز من خاله فهيمه

ـ كثيرا

ـ نعم

في الصباح كان السائق عند الباب ...قال بأنهما سيسلكان طريق الجزيرة...عفك ...الشامية ...ثم الكوفه ...الطريق حتى الكوفه آمن وهو تحت سيطرة الثوار , في الطريق حدّثه عن سقوط قلعة سكر ..ظلت ثلاثة ايام بيدهم ...ثم استعادوها منهم ...أعدم الاسرى الهاربون هم الناجون

.لم يعتدوا على الأهالي

ـ من ...الجيش ؟

ـ لا الثوا ر

صمت واجما كأنه يتذكر شيئا ما و يستعيد ذكريات بالغة الخصوصية ثم بدأ بالغناء ,كان صوته حزينا مفعما بالاسى ....كان كأنه يندب عزيزا

تنشـــدنـــي عله هال حـــا ل .....حـــالي عله حـــا له

سمـجه وشحيح المـــاي .....وبظـهري فـــا له

التفت الى خالد

ـ بنادق الكلاشنكوف أمام الدبابات !! والمصيبة الاكبر الهيليكوبتر وصواريخ أرض أرض , يا الله

قال " السـيد" "كانت خطة ""....الامريكان يقدرون ان ذلك سيحصل ولهذا سمحوا لدبابات الحرس الجمهوري بالعودة الى بغداد

صمت لحظة ثم تابع ـ كنت أول امس في كربلاء " الهيليكوبترات " تلتقط اهدافها التقاطا.

ـ هل كنت مع الثوار

ـ أنا !! لا عمي ...كنت أنقل جنازة ...كانت لأمراه من قرية قرب القلعة ...كان ابنها معي ولكنه لم يرجع بعد الدفن ....ظل في كربلاء.

ـ هل أنت متزوج ؟

نظر الى خالد مستغربا وقال

ـ نعم ....عندي بنتان علاهن في الصف الثاني الابتدائي ..لم تسقط, كل شهر هي الاولى ...تحفظ جزء" عم " , الصغيرة في الثالثة حنطية ...ضفائرها ذهبية...اجمل طفلة في القلعة....وسن....بالتأكيد ستستغرب ...علا هن و وسن .... أسم جميل... أليس كذلك ؟

ـ نعم ...ولكن كيف اخترته؟

ـ جئت ببعض الاثاث من بغداد الى بيت القائم مقام, أثناء انزال الاثاث خرجت طفلة كأنها أميرة جاءت من حلم جميل ...سبحان الخالق !!...قالت ان اسمها و ســن , كانت زوجتي حامل،.

ـ وتعيش مع اهلك؟

ـ اهلي !....انهم يعيشون معي ...ابي متوف ... امي ...وأختاي ...الكبيرة لديها ثلاث اطفال ... قتل زوجها في الحرب مع ايران ...كان ذلك في معارك نهر جاسم في البصرة ...هل تصدق اني لم أسمع بهذا النهر الا عندما وقع القتال!!أما

الثانية ...مسكينة ... زوجها معلم ...أخذوه بعد شهرين من زواجهما ...وبعد شهرين قالوا لقد مات ...كيف حصل ذلك ! لم يخبرونا ...مسكينة " زهره ".

ا لطريق موحش فالجزيرة ارض خالية على امتداد اكثر من مئة كيلومتر حتى اول عمران ,عادة ، يستعمل هذا الطريق المهربون وقطاع الطرق بالإضافة الى السيارات التي تنقل الجنائز من المدن والقرى الواقعة على الجهة الشرقية لنهر الفرات

على الطريق الاسفلتي تل ترابي من الوضح انه قد أعد عمدا ...التفت السائق نحو خالد

ـ لآ تخف هذا حاجز أقامه الثوار من ألبو ياسر

توقف عند الحاجز

ـ الى أين ؟

تقدم شاب يرتدي دشداشة يرفع طرفها الى حزامه المربوط على استدارته محافظ جلدية للإطلاقات وعلى رأسه كوفية وبكتفه رشاش

ـ " سيد" عدنان نحن ذاهبان الى النجف

ـ ها ...حميد ....شلونك

ـ بخير ...كيف حال الوالد

ـ الحمد لله

شاهد خالد بضعة شباب مسلحين يحيطون بالسيارة .... كانوا بانتظار استطلاع عدنان في حين كانت ايديهم على اسلحتهم لم يكونوا يتبادلون الحديث ...صامتون بشيء من التوتر ...اعتقد ان سبب ذلك ربما يرجع الى الاخبار غير المشجعة التي تردهم من الجبهات

ـ تحياتي للوالد وللعائلة

ـ ستصل ...ولكن كيف أدعكما تذهبان وا لساعة وقت غداء ! ا لوالد لن يغفر لى هذا ,على الاقل الاخ غريب ولا يمكن ذهابه من دون أن نتشرف باستضافته كاظم , سأعود بعد ايصال الاخوة للبيت....

التفت السائق نحو خالد

.ـ لن نتأخر اكثر من نصف ساعة, نحن لسنا في بغداد وعادات القرى مختلفة

لم يرد ولكنه استسلم بهدوء ...عند الباب استقبلهم رجل في الستين ...ملابسه مما يرتدي اهالي القرى في الفرات الاوسط

ـ أهلا بالضيوف

كان الرجل مبتسما تلوح على محياه مسحة من الطيبة وترتسم في ابتسامته البسيطة رغبة في التسامح على شيء ما قد يكون في نفوس مستمعيه , في الغرفة الطينية فرشت حصران من البردي مد عليها بسط ملونة محلية الصنع مما تشتهر به المنطقة

لم تك الاضاءة جيدة ولهذا كانت صور الجالسين مشوشة ...ربما يكون ذلك من تعب السفر والقلق ....نهض الرجال من مجلسهم عند دخولهما .

كان الحديث عن ا لقتا ل , بسيطا ومباشرا ومفعما بالأمل , لم يكن يداخلهم الشك في إ ن حياة جديدة تبدء الان

ـ الاخ من بغداد

ـ نعم

ـ ولكن في هذه الظروف

ـ لدي سيارة عند كراج في المنطقة الصناعية تركتها لإصلاحها لأنها تعرضت لحادث انقلاب ....في النجف افضل مصلحي السيارات في العراق

أمّن السائق على كلام خالد بهزة من رأسه ....نقرت يد نسائية على ظلفة الباب المفتوحة للداخل فقام أبو عدنان

قدم صحنا كبيرا عليه رز ولحم , قطع كبيرة وأرغفة خبز حارة واناء فيه لبن رائب

ـ تفضلوا . قال ابو عدنان

لم يكن هناك ملاعق أوشوك كانوا يتناولون الرز بالأيدي ثم يقتطعون من اللحم حسب الحاجة ، يغرفون شيئا من اللبن بواسطة ملعقة كبيرة ثم يخلط بالأصابع وتدوّر اللقمة قبل ان ترتفع الى الفم ...كان الطعام لذيذا ولكنة لم يجد به رغبة

لتناول الكثير , اصر ابو عدنان ان يستزيد لان الطريق طويل وهو بحاجة الى الغذاء فقد لا يجد مطعما او محلا لبيع المأكولات ... ابو عدنان يخدم الجميع ...يقتطع قطعة من اللحم يقدمها لهذا أو يدفع بالرز باتجاه ذاك .

كان مكبر الصوت المنصوب على سيارة يقترب شيئا فشيئا من الدار يناشد الاهالي أن يعيدوا ما أخذوه من أثاث ومعدات من مكتب الناحية ومركز الشرطة والمدرسة ويتوعد بأنه عند الساعة الخامسة مساء سيبدأ تفتيش من بيت لبيت عن المسروقات وسيعاقب من لا يعيد ما أخذه على الفور الى بيت السيد عمران أبو عدنان لغرض احصائها والتأكد من عدم الحاق اضرار بها قبل اعادتها الى أماكنها .

قال ابو عدنان ـ الاهالي يكرهونهم ...يكرهون كل رموزهم وقد اعتقدوا ا ن سقوطهم يسمح بالاستيلاء على الممتلكات العامة ... هذا الربط الخطأ ربما بسبب الحقد تجاههم...أليس كذلك ؟

ـ ربما

ـ نريد أ ن يفهموا أنه لابد من السلطة لأنه بدونها ستعم الفوضى

كان يتحدث ببساطة , ربما لا يدري أنه يلخص كمّا هائلا من المعرفة

عبرا الجسر الخشبي على الفرات ...كان سوق" الشامية" مزدحما مليئا بالمارة وبالباعة ...عند محطة البنزين أوقفتهم سيارة " بيك أب " عليها رشاش ثقيل يقف خلفه شاب يشد حول رأسه شريطا اخضرا كتب عليه لا اله إلا الله باللون الابيض

ـ الى النجف

ـ لا يمكن ... القتال عنيف وطائرات الهيليكوبتر تقصف المدينة ومحيطها ولا توفر اية سيارة تتحرك على الخط اذ يتوقعونها لنقل امدادات للثوار

قال خالد ـ نعرف ذلك ولكن لابد لنا من الذهاب

قال السائق ـ لا أستطيع تعريض حياتي والسيارة للخطر ...السيارة مصدر رزق عائلتي ...أرى انه لابد من العودة للشامية

.عادا الى الشامية ...كان واضحا أن السائق يرغب في العودة الى القلعة

-لا توجد هنا فنادق ...هل سنبقى طويلا ؟

ـ حسنا ...يمكنك أ ن تعود أم أنا فسأظل هنا عسى أن استطيع تدبير ذهابي غدا الى الكوفه .

دفع للسائق أجرته ....بلغ أبو عادل تحياتي ...قد أراه قريبا .

كا نت الشامية تعج بحركة نشطة لم تشهدها من قبل ...عشرات الالاف من مواطني النجف والكوفة والقرى المجاورة في محيط القصف المتبادل قد هربوا اليها , افترش الناس ارصفة الشوارع والساحات العامة والمباني الحكومية الفارغة والمدارس , كانوا يتكدسون حيثما وجدوا مجالا وعلى الطريق من الكوفه كانت جموع النازحين مستمرة مشيا على الاقدام ، سيلا لا نهاية له لم ينقطع حتى عندما ينهمر المطر في ساعات الفجر الاولى، يخيم عليه الخوف والرعب ، تحمل النسوة على رؤوسهن حزم الاغطية والملابس , الاطفال انهكهم المشي عدة كيلومترات وجمّد الخوف الدموع في عيونهم وهم لا ينفكون يصرخون ولم تجدي معهم توسلات الامهات أو نهرهن لهم ... كانت النسوة حريصات على القليل من الطعام الذي يحملنه وعلى مصوغاتهن الذهبية والنقود .... تركن كل ما عدا ذلك .

تذكر خالد كيف تم نهب بيوت الفاو في محافظة البصرة ...اية غرائز همجية يتم تنميتها واطلاقها ...لمصلحة من يتم ذلك؟!

اشترى رغيفا من الخبز ... شعر بالجوع وبالوحدة ... احس في داخله فراغا رهيبا يمتد ببطيء ليستولي على مشاعره ... اين يذهب ؟ ماذا يفعل ... كان الناس من حوله كأشباح يراها من بعيد , لم يكن يدقق في ملامحهم كانوا كلهم بالنسبة له واحد

وقف على جسر الشامية الخشبي يرقب الفرات , الماء العكر يتدافع ...يهرب جنوبا... يجري كأنه حصان حرون ... لم يكن يجري كموجات متتالية بل فوران صاخب لا يريد التوقف ... أتكأ على الحاجز .... ركز على الماء ...قفزت سمكة رصاصية داكنة كانت تعاند التيار بنزق ... شعر بالخبز الجاف يقف في حلقه ...عاد الى السوق ليشتري شيئا يمكن ان يجعله اكثر طراوة ....بائع الخضروات يحاول ان يقنع النسوة العجلات واللواتي لا يتوقفن عن المساومة , كانت فتاة في

الخامسة عشر تمسك بيدها بضع حزم من البصل الاخضر والبقدونس تنتظر أ ن يلتفت اليها لتدفع الثمن

ـ رجاء كم سعر هذا ؟

ـ لحظة ....بالدور

كان وجهها الطفولي ينضح حلاوة ...عيناها باسمتان شديدتا السواد تتفتح حدقتاهما عن براءة آسره ... تتدلى خصلات الشعر الكستنائي من تحت عبا ئتها . ... كانت تبعث شعورا بالصفاء

قال البائع ـ أنت من الكوفة ؟

ـ لا من النجف

شد الجواب خالدا

! ـ من العمارة ...الزهراء

ـ لا , من الهندية

تيقظت مشاعره ، نسي التعب والجوع وطرا وة المضغ ,أصبح مستفزا

ـ قلـت من الهندية

ـ نعم

ـ هل تعرفين استاذ فاضل معلم ...زوجته خديجة معلمة أيضا ....في مدرسة الهندية

ـ نعم أعرفهم ابنتهم سراب كانت معي في المتوسطة ...قبل ايام جاءهم اقاربهم . من بغداد

ـ متى رأيتهم آخر مرة ؟

ـ قبل يومين , عند " دخول الجيش " ، ركبوا سيارتهم وغادروا , لا ادري ان وصلوا بغداد أم رجعوا ثانية , العديد من المغادرين لم يتجاوزوا محيط المدينة . بسبب شدة القتال على الطريق وفي البساتين

شكرا لله انهم على الاقل أحياء , ولكن أين هم الان؟ هل اضطرهم القتال على الطريق اللجوء الى احدى المدارس أم هم الان في أحدى البساتين في العراء ...كيف يتدبرون أمرهم ؟ ماذا يأكلون؟

في الشامية التي راح يبحث ، في مدارسها ومبانيها الحكومية وفي البساتين الممتدة على شط الفرات ، عن عائلته كان يرى المئات ينامون مكدسين غير مبالين بالرطوبة او الريح الباردة التي كانت تصك عظامهم .... كانت الامهات يحتضن أطفالهن ,الخوف "منهم " من اجتياحهم مواقع المقاومة وا لوصول الى .هنا يبعث الرعب في اوصالهن .....دائما ليس للرحمة مكان في قلوبهم

جلس على الرصيف ..لم يكن يملك اغطية ...لا مكان للمبيت ...حتى ولو سقف يقيه المطر الذي قد يتساقط بأية لحظة ...كانت تمر سيارات " بيك أب " مسرعة تحمل رجالا مسلحين ...كانوا صامتين يبدو عليهم وجوم مستسلم ...في عمق النظرات كان يلحظ ادراك عميق لعبثية اللحظة ولكنه رغم ذلك كان يكسبهم صلابة واستهانة بما سيواجهون ... لم يكن الموت هو الذي يشغلهم ، كان شيئا آخر يتعلق بالفرصة المتاحة لهم بحمل السلاح .... بالرفض ... أن يقولوا بالبندقية....لا ...كبيرة مدوية بحجم القهر والاهانة وأن يعطوا هذه الــ " لا " ما . في ارادتهم من قوة

ـ مرحبا

ـ اهلا

كان رجلا طويل القامة نحيفها اضفى عليه الغروب الرمادي غموضا وشيئا من الصلابة تبدى في استقامة انفه وكثافة حاجبيه

ـ الاخ غريب ؟

ـ نعم

لم يجد لديه الرغبة في مواصلة الحديث معه ولكن مما تعلمه من تجواله في المنطقة أ لا يقطع التواصل مع محدثيه فقد لا يعطي الانطباع الاول صورة دقيقة، ربما يعود ذلك لطبيعة التركيبة الاجتماعية ...كما قرأ مرة لاحد اساتذة علم ... الاجتماع في بحث عن المجتمع العراقي ...أو ربما الى الثقافة العامة المتوارثة

ـ هل تبحث عن احد ما من أهالي المنطقة

ـ كلا ابحث عن عائلتي المفقودة

ـ ولكن كيف ستقضي الليل ؟

ـ هنا

ـ هنا

! قالها باستغراب ناظرا اليه بتفحص ...ربما أعتقد أنه يمزح

ـ الاخ من بغداد

ـ نعم

ـ لاحول ولا قوة الا بالله ...الى اين سينتهي كل هذا ...لا اعتقد انك ستتحمل المبيت على الرصيف فعادة الليل شديد البرودة ويبدو أنك متعب

ـ لم أجد مكانا يمكن أن الجأ اليه ...لا يوجد فنادق ...وكل الاماكن مزدحمة ...لا يوجد مكان مسقف لم يكن مليئا بالناس .

... ـ صحيح حتى المساجد والحسينيات

صمت برهة ثم تابع بحماسة

ـ هل تسمح لي بأن أضيفك ؟ ..عندي في البيت

ـ جزاك الله خيرا

. ـ أمهلني خمس دقائق وسأعود , علي أن أشتري بعض الحاجيات للبيت

فكر خالد بأن ما يحصل لا يمثل انفصالا عن الواقع ,انه الواقع ذاته باستمراريته... التعارض على الاقل ليس هنا , سيذهب مع رجل حتى انه لم يتبين ملامحه بدقة.

عاد يحمل دجاجتين وكيسا من الرز

ـ هيا

ركب معه ... حين تحركت السيارة بدأ يفكر بأن التعارض ليس مسألة اجتماعية فقط اذ قد يكون موقفا انسانيا ايضا , بين ما يفرضه الاستنتاج العقلي وما يحسه الانسان ...ما يشعر به ... بدأ يداخله شيء من الخوف يقابله عدم توفر بديل ، كان متعبا ، قلقا ، سدت بوجهه كل المنافذ ...لن تكون أية مخاطر محتملة اكبر

من المخاطر التي تواجه فاتن وناديه وأحمد ...هو يواجه مجهولا ولكنه يجد بنفسه القدرة رغم كل شيء على المقاومة أما هم فأن المجهول أكبر من تصوراتهم .

أخذ الطريق الترابي المحاذي للفرات جنوبا ، شريط كثيف من البساتين يلفها ظلام غامض وعلى الجانب الاخر تبدوا اشجار النخيل كأشباح بلا وجوه تصدر انينا كانه نواح مكتوم حينما تجبرها رياح آذار الليلية الباردة على الاهتزاز, ابتعدا عن المدينة ولم تعد غير نقيق الضفادع ونباح الكلاب تقطع الليل , كان الطريق موحشا كئيبا كل شيء ممكن في هذا الجو المثقل بالاحتمالات هل يطمع الرجل بسلبه ما يعتقد انه يحمله من نقود ؟!! ربما ... ولكن هل يذهب ابعد من ذلك , يقتله !! ربما ... انفلت زمام الظنون ، كل شيء ممكن , وضع يده على اكرة الباب استعدادا لفتحه والقفز خارجا ومن ثم الهرب عند أول بادرة شر من الرجل .

ـ نحن مجموعة صغيرة تعيش خارج المدينة ... كلنا ابناء عم ..يمكن أن تقول اننا عائلة كبيرة ..هنا نسمي مثل هذا التجمع "فخذ " الفرات الاوسط تسكنه عشائر وحينما تمتد العشيرة تتفرع الى افخاذ وثم الى بطون ، في هذه المناطق لابد للإنسان أن يكون جزءا من كل ، للعشيرة روابطها التي تحكمها قوانينها الخاصة والانسان هنا اكثر تما سكا مع الاخرين .

بدأ الحديث يعطي انطباعا مشجعا ....فالرجل لا يلمّح الى اية نية سيئة وهو يتحدث بلهجة العارف بأهمية العلاقات الانسانية في محيطه ،هدأت ظنونه بعض الشيء وترك اكرة الباب واسترخى

ـ لهذا فحينما بدأت الانتفاضة انتشرت في الفرات الاوسط بسرعة

ـ ربما لان المنطقة مشهورة بوجود ميل واستعداد للتمرد ....أليس كذلك

ـ ربما , ولكني لا اعتقد بان هذا هو السبب .... لقد تعرض الناس هنا الى كم هائل من الظلم ...ترتكب التجاوزات بحقهم لأتفه الاسباب ...الشباب لا يجدون اي مستقبل لهم و من لا يموت في الحرب يموت با لتحقيق ...الكل معرض لان يحقق معه ....وبالتالي لان يموت لا أحد يعرف لماذا يريدون أن تجري الامور على هذه الطريقة

. ـ نعم ألاحظ ذلك اذ تبدو الحركة وكأنها انفجار لا يخضع لمحددات سياسية

لم يعلق الرجل , فكر خالد ولكن من سيحاول ركوب الموجة ؟

من سيحاول الاستفادة من هذا الانفجار واستلام الدفة ؟

!ـ قال الرجل ـ ماذا؟

ـ لا شيء

انحرفت السيارة يسارا وسط البساتين ...عاود خالد الشك.... بدأت أضواء خافتة تتلألأ وسط الظلام الكئيب... أطمأن فالطريق يفضي الى قرية .

تدافع بضع صبية نحو السيارة وارتفع نباح الكلاب التي احاطت بهما ..

قال الرجل ـ هؤلاء هم الدفعة الثانية من اولادي ..... الدفعة الاولى بنتان ... ستتعرف الى الجميع

قاده الى غرفة منعزلة , فتح الباب وأضاء فانوسا نفطيا معلقا على عمود خشبي وسطها.

تفضل - .

كانت الغرفة رحبة جدرانها عارية ، لم تجهز بأية كراسٍ ...في الوسط حصيرة نظيفة من سعف النخيل الابيض والذي يكون عادة في وسط حزمة السعف على رأس النخلة والى الجدران مدت مجموعة من قطع السجاد العراقي ذات الالوان الحمراء ورصفت فوقها كالعادة وسائد طوال ، خمّن خالد أن الرجل كثير الضيوف

ـ أرجو أن تسمح لي ببضع دقائق وسأعود

واضح أنه يريد أن يعطي تعليماته لزوجته وبناته بإعداد العشاء ... سمعه يطلب سكينا ...قال لزوجته ... على وجه السرعة ، الرجل متعب وقد يرغب بالنوم ...لا اعرفه ... كان وحيدا ومهموما فأردت مساعدته ...سنرى في الغد ... كان صوت امرأته هامسا لم يتبينه ولكن من الواضح من اجاباته انها كانت تستفسر عنه

ـ اهلا وسهلا

كرر الرجل ترحابه وهو يعود

ـ في الحقيقة أنا عاجز عن الشكر

ـ على ماذا .... لولا هذه الظروف لرأيت العديد من الرجال يسهرون عندي ، فنحن جزء من العشيرة التي تسكن المنطقة (الميّال) معتادون على الضيوف والبيت الذي لا يضاف لا تدخله البركة ... أنا اشكرك لأنك قبلت دعوتي .... اهلا وسهلا

أشعل مدفأة نفطية وقربها اليه , الليل شديد البرودة ولكنه لم يك يشعر بذلك ، كان انشغاله أقوى من البرد , مد يديه الى المدفأة ، هذا هو آذار في المناطق المكشوفة يكون الهواء غير محتمل يتسلل عبر شقوق الباب ليدق في العظم كالإبر.

دخلت فتاة في العشرينات ... قال هذه زينب ابنتي الكبرى خريجة لغة انكليزية في جامعة القادسية ...وبانتظار التوظيف في احدى مدارس المحافظة .... لعنة الكويت اخرت ذلك

سلمت الفتاة بشيء من ا لحياء.....قالت...الشاي سيصل حالا

قال الرجل ـ الشاي لقتل البرد وأيضا لقتل الوقت لحين الانتهاء من اعداد الطعام .. أرجو ا ن يكون هذا ملائما

ـ نعم ملائم

ـ زينب هي ساعد امها الايمن ... لدي ستة غيرها ...اختها الصغرى سميرة ...واربعة اولاد .... سميره مختلفة عن الجميع نموذج للمثابرة ... نسميها دودة الكتب فهي مشغولة دائما بالقراءة

حين تعود من الجامعة تحمل دائما مجموعة من الكتب التي تستعيرها من المكتبة

ـ ربما المنهج صعب

ـ لا.. .ماتوراه لا علاقه له بالمنهج الدراسي تقول ان التاريخ وظيفة وفلسفة ...صدقني انها حينما تنطلق بالحديث يصعب علي التصديق انها ابنتي !! خالها مدرس في ا لثانويه, يدرس التاريخ ... يقول ان عليها ان تتوقف عن الاستمرار بهذه القراءات ...سيصبح هذا خطرا عليها ... وقد خطرت لي فكرة لحل هذه المشكلة... نحن بدون قراءة مدانون فكيف ا ذا قرأنا

ـ كيف .؟..اعني ماهي الفكرة

ـ لقد بدأت اطلب منها كل مساء أن تقرأ لي سورة من القرآن الكريم والزمت العائلة كلها بالصلاة معي .....فكرت أن في هذا شيء من التحصين ... ولكن يبدو أن البنت ذكية فقد فهمت قصدي ... كفت عن استعراض افكارها أو الدخول بأية مناقشة معي أو مع خالها .

.... ـ ولكن من المحتمل انها بدأت تبتعد عن

ـ كلا .... لأنها ظلت تأتي بالكتب من المكتبة أو من بعض صديقاتها

كان طعم الشاي لاذعا ...فهو لم يتناول غير قطعة من رغيف الخبز ظهرا ولهذا اكثر من السكر ليخفف من مرارته .

ارتفع صوت المذياع بأغنية لفيروز مليئة بالشجن يحملها الليل والغربة مشاعر غامضة مفعمة بالحزن ... دخلك يا طير الوروار ....احس انه ينفصل عن المكان .... يذهب بعيدا

دخلت فتاة سمراء ذات عينين شديدتي السواد لامعتين أضفت عليهما الاضاءة الخافتة صلابة ،

كان وجهها خاليا من اية مساحيق ولكنه كان ناعما وقد اكسبته استدارة ذقنها شيئا من الشاعرية المرهفة ... كانت على العموم جميلة تشعرك بان لها حضور شخصي مقبول

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم السلام

! ـ هذه سميرة عالمة التاريخ

ابتسمت الفتاة محرجة من اطراء والدها

ـ بابا العشاء جاهز ... هل تغسلون ايديكم في الخارج ام تفضلون أن أجلب الابريق " واللكن " هنا

ـ لا .. الجو بارد .. اجلبيهما للداخل

سكبت الماء بتؤدة وقدمت المنشفة القطنية , حين اعادت الاواني خرج والدها معها وعادا يحملان صحنا كبيرا من الرز وضعت فوقة الدجاجتين فيما كانت زينب تحمل اناء بداخله لبنا رائبا

علق الرجل ـ عشاء بسيطا ولكن صدقني لا علاقة له با لتاريخ

!! قالت زينب ـ ولا حتى بالجغرافية

. زمّت سميرة شفتيها لتداري خجلها فقد فهمت انها المقصودة بالمداعبة

لم يشعر ميلا لتناول الطعام ولكنه حاول أن يجامل مضيفه ... بدأ يلح عليه النعاس وهو على السفرة فيثقل جفنيه

ـ آسف جدا ...لا استطيع مقاومة سلطان النوم .... لقد كان عشاء لذيذا ... هذا الجو الاسري أعاد لي بعض الثقة بنفسي وبالغد ...سأظل أحتفظ بذكريات هذا المساء طوال عمري.

ـ أقدر وضعك تماما ...زينب .... سميرة ... ارفعا كل هذا ... ولتحضر أمكما البطانيات

.أغلق الباب بهدوء متمنيا له نوما هانئا

الصباح في القرية يبدأ مبكرا ..... في السادسة استيقظ كل شيء .... الفلاحون ... الديكة ... الكلاب ... حتى النخيل بدأ سعفها بالحفيف المرح ..تجاوز أنينه المبحوح .. صمتت الضفادع واختفت الجنادب .... ارتفع بديلا عن ذلك أصوات آلاف العصافير تتقافز بحثا عن الطعام لصغارها .. انها الحياة تعود ثانية للبدء .

دخلت أم زينب تحمل صينية كبيرة مغطاة بقطعة قماش بيضاء

ـ صباح الخير يا أخي ... أرجو الا تكون الضوضاء قد حرمتك النوم ... الذين لم يتعودوا العيش هنا يصعب عليهم النوم في الايام الاولى ... ففي الليل ضجة من نوع آخر ... الكلاب والضفادع وعويل الرياح .

. سيحضر ابو زينب حالا فور أن ينتهي من صلاته

كان إبريق الشاي الذي يتصاعد منه البخار يبعث رائحة منعشه تختلط برائحة الخبز الحار والمعد قبل دقائق .

. ـ لقد نمت كما لم أنم طوال حياتي و لم أسمع شيئا

قالت زينب ـ لقد حاولوا دخول النجف ليلا من جهة الحي العسكري ولكنهم فشلوا وهم يعسكرون الان على طريق الحلة

ـ هل سمعت هذا من المذياع ؟

ـ كلا .. خليل ابن ابو حسن هو الذي قال ذلك ... عاد لتوه من القتال بعد إصابته بكتفه .. يقول ان الجثث على الأرصفة وفي الشوارع ... لا يستطيعون رفعها بسبب شدة القصف المدفعي والصاروخي ... والخوف من طائرات الهيليكوبتر التي تهاجم كل شيء يتحرك ... فجر اليوم ضربوا حي الزهراء بصاروخ أرض أرض ... قد يفعلوها ويستعملوا الكيماوي

قال الرجل ـ ألم يقل الحلفاء انهم دمروا الاسلحة الكيماوية ؟

قالت سميرة ـ يقولون

قال الرجل ـ الحديث لن ينتهي ... لنذهب ... سنحاول البحث عن البنزين في الشامية.

استقلا السيارة وغادرا القرية الهادئة والمسترخية في غابة النخيل التي تنام على إيقاعات الليل وتستيقظ على مرح الديكة ونزق العصافير ... ولكنها بين الليل والنهار تحلم بأن ينتهي رعب الدبابات، وأن لا يختفي أبناؤها ليلا دونما عودة....

الفصل الرابع

أ لشمس ماتزال تشرق زاهية، والعصافير تتقافز على سعف النخيل والفرات يجري حرونا ... انه الربيع ، الذي يبدأ في العراق حييا متألقاً ثم يتخابث فيدفع موجات المطر تعكر على الناس رغبة الاستمتاع بالمشي على الطرقات الزراعية ويعابث النهر الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه فيندفع كمن يهرب من المواجهة حاملا اثقال المطر ... تطل الحياة مدهوشة كترانيم طفل يتطلع الى قوس قزح ، ولكن حيث يتناسل الخراب تنطفئ عينا الطفل وتتحول الترنيمة الى صراخ مفجع ، انه طفل اليوم مفقوء العينين, لا يجد الحليب في صدر أمه التي يتشبث بها، يفاجئ بالرعب الذي يجوس خلال البيوت فتأخذه نوبة عويل مجنونة.

على جدران البيوت في الشامية كانت شعارات سياسية ، يوحي خطها البدائي بالتفرد الذي يأ خذها من الالف الى الياء ....كانت بعيدة عن الشجاعة والبسالة في عيون المقاتلين الذين شاهدهم ... كانت تلهث ورائهم محاولة اعطائهم صيغة ما .... سمع صهيل الخيل في هذه السهول وهي تندفع وعليها اجدادهم المتلهفون لمواجهة الانكليز في ثورة العشرين , سمع شاعرهم يتهدد " الطوب أحسن لو مكواري " لم تك لهم شرفات تغطيهم ولهذا تشردوا في براري العراق , فهل نصلي منذ الان للحظات الانكسار القادمة فوق صهوات الرياح تحرسها طائرات الحلفاء الشامتة , أي قدر هذا الذي يعيد تفجر العواطف المكبوتة بذات سياقات المأساة ؟؟

ـ أبو احمد ... أرجو ان تعذرني لما سأقوله ،البنزين لدي غير كاف ولا يوجد من يبيعه الا شخص واحد يستغل الموقف .. دائما هناك المستفيدون !!

تنهد متأسفا ثم تابع ـ اقترح أن نحاول مع قيادة الثوار في حسينية الشامية والأفضل أن تحاول أنت ذلك مع " السيد " ، اسمه عبد الحافظ ، بأن يزودنا ببضعة لترات من محطة بنزين الشامية التي يسيطرون عليها .

دخلا السوق المزدحم ... الشامية تستضيف أكثر من عشرة آلاف مهاجر وفي مثل هذه الساعة ، الكل في السوق اما ليشتري أو ليقضي الوقت ... المقاهي مزدحمة وعلى الارصفة وقفت النسوة يثرثرن متحدثات عن كل شيئ وبصوت مرتفع ... لا شيء يمكن أن يكون سرا هنا

الحسينية بناء رحب يقع في وسط السوق يتميز جدارها الخارجي بطراز بنائه وبنوع الطابوق الاصفر الفاقع وبالباب الخشبي المشغول بالآيات القرآنية .. على الباب كانت بقع من الحناء الطرية ... عند الباب مجموعة من المسلحين ، بعضهم

يجلس على الرصيف يتشاغل بتدخين لفافات من السكائر وآخرون يسدون المدخل للحراسة ... كانوا في معظمهم شبابا يرتدون ملابس متنوعة ولكنهم جميعا يضعون حول رؤوسهم أشرطة خضراء كتب عليها " الله اكبر " .

ـ الى أين ؟ قال أحد الحراس

ـ أود مقابلة السيد عبد الحافظ , أنا غريب ... من بغداد

ـ لحظة رجاء . قال مقاتل آخر وتقدم نحو خالد ليفتشه ولكنه لم يسأله لماذا

ـ تفضل

كان مدخل الحسينية يفضي الى قاعة كبيرة ... ساحة مبلطة " بالموزاييك " الملون ثم اعمدة من الاسمنت ترتكز عليها القبة المشغولة بالفسيفساء ...خلفها كان رواقا دائريا مفروشا بالسجاد ، على الجانب الايسر مجموعة من المقاتلين يجلسون على الارض ....بشاب في الثلاثينيات يضع على رأسه عمامة سوداء ويرتدي قفطانا فوقه عباءة من الصوف حمراء مطرزة حوافها بالإبرسيم الأسود يجلس في صدر الصالة .... كان الشاب يعطي تعليماته الى المقاتلين بصوت هادئ واضح النبرات وهم يصغون باهتمام

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . رد الجميع وتطلعوا نحوه

ـ السيد عبد الحافظ ؟

... ـ نعم

رفع وجهه نحو خالد ... لحيته السوداء المشذبة يعلوها وجه يميل الى السمرة ، وعينان ودودتان عميقتان تحملان هما يحاول أن يداريه

ـ سيد عبد الحافظ ... أنا من بغداد وقد تقطعت بي السبل ونفد البنزين من السيارة ولا يوجد مصدر يمكن الشراء منه في الشامية ... أكون ممتنا لو ساعدتموني ببضعة لترات من محطة التعبئة

ـ أهلا وسهلا بك ... أقدر حاجتك تماما ولكن يؤسفني أن اقول أن هذا مستحيل ففي المحطة كمية محدودة من البنزين ونستخدمه لسيارات المقاتلين ولا توجد اية

امكانية لتعويضنا من مصادر اخرى ... انت ترى انه بحكم الضرورة يتعذر علينا التفريط بلتر واحد , ثانية أكرر اسفي .

لم يناقشه أو يعيد الطلب فقد كان الرجل واضحا وقاطعا في ايضاحه ... شكره وخرج .

في الطريق أخذ أبو زينب يسأل من يعرفهم عن عبد الحسين درنفيس, ضحك خالد ... قال أبو زينب

ـ يسمونه درنفيس لآنه لا يتردد عن القيام بأي عمل من أجل النقود كما أنه يتمتع بالقدرة على ايجاد الحل لأية مشكلة , اذا فقدت سلعة من السوق فانه يكون الوحيد القادر على توفيرها ...لا احد يعرف كيف .

قال رجل ـ نعم كان هنا وذهب الى كراج حجي محمد

في الكراج كان عبد الحسين يتهامس مع شخص آخر وحينما رآهما متوجهين نحوه صمت بتواطء واضح مع الشخص الاخر

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم

ـ عبد الحسين.... لدي كلمة معك بعد أن تنتهي مع الاخ

ـ لقد انتهيت .... في خدمتك

انتحيا جانبا ... تهامسا والقى عبد الحسين نظرة عجلى نحو خالد , عادا اليه

ـ حسنا لقد تم تدبير خمسة عشر لترا و أعتقد أنها كافية

في شارع ترابي جانبي وقفا بانتظار عبد الحسين الذي سرعان ما عاد بصفيحة

ـ خمسة عشر لترا

أفرغ البنزين في خزان السيارة وقال ـ خمسة وسبعون دينارا

ـ ولكن هل هي فعلا خمسة عشر لترا

... أقسم بالله وبالرسول وبالإمام انها كذلك

ـ خمسة عشر لترا ... لماذا لم تتأكد قبل افراغها ؟.. على اية حال يمكنك اعادتها ... غيرك العشرات يبحثون عن لتر واحد و لأنك ابن مدينتي اسرعت بتلبية احتياجك

. اخرج ابو زينب حافظة نقوده ولكن خالد بادر بالدفع

استقلا السيارة وعبرا جسر الشامية ,على امتداد الطريق الزراعي كانت سيارات مختلفة تسرع نحو الكوفة محملة بالمقاتلين .... كانوا من فلاحي المنطقة ، بعضهم يهزج أو يرتجز لبث الحماس وبعضهم كان جاد الملامح قاسي النظرات ، يعرفون جيدا انهم قد لا يعودون ولكنهم مصممون على المواجهة ... على جانبي الطريق كان مئات الاشخاص .... عوائل كاملة يفترشون الارض... النساء تعد الطعام والاطفال لاهون باللعب والمشاجرة أو منطلقون يجرون بكل اتجاه فوق العشب الندي أما الرجال فقد كانوا يتطلعون الى الطريق بلا مبالاة،

كانت الساعة الواحدة حينما انعطفا يمينا ... على اليسار كان مصنع الاسمنت المتوقف عن العمل ، أمامهم كان جسر الكوفة المفضي الى مرقد مسلم بن عقيل ... بمحاذاة شاطئ الفرات طريق اسفلتي وعلى الجانب الاخر بساتين تفوح منها روائح عبقة أمامهم على الجسر ما زالت جموع غفيرة تزحف باتجاه طريق الشامية فوق سماء الكوفة والنجف كانت اربع طائرات هيليكوبتر تتبادل المراكز و تراقب الارض بدقة وتصوب صواريخها نحو مصادر نيران المقاتلين . أو تجمعاتهم

كانت الصواريخ تصدر اصواتا صاخبة حادة يحدث ارتطامها بالأرض دويا هائلا يعقبه ارتفاع سحابة من الدخان والاتربة ... المعركة تبدو من بعيد اشبه بلوحة بانوراما صاخبة فيما راحت رشاشات المقاتلين تئز على نحو متصل متحدية ، ثابتة لا تترك مجالا للشك انهم ما يزالون هناك وانه مازال الوقت مبكرا لان ." يرتاح " الاخرون

توقف أبو زينب عند مدخل تقاطع الطريق القادم من الشامية مع الشارع النازل من جسر الكوفة

ـ يمكن أن أنتظرك هنا حتى الخامسة فاذا لم تعد سأغادر الى البيت لأنه من غير المستحسن استعمال إضاءة السيارة في الظلام لأنها ستكون موضع شبهة ، ولهذا تستهدفها الطائرات،

تطلع الى الجهة الثانية من النهر وقا ل

ـ أفضل أن تنتظر قليلا حتى تخف حدة القتال

سمعا دويا هائلا اعقبه بعد ثوان دوي آخر وشعر بان الارض تتحرك تحت قدميه وشاهد مياه النهر تضرب الشاطئ بغيظ فيندفع رذاذ بارد الى الشارع

قال ابو زينب ـ يبدو انهم مصممون على تدمير المدينة ... هذه اصوات صواريخ سكود .

عبرت فوقهم وعلى ارتفاع منخفض طائرات التحالف ، كان من الواضح انها لم تكن على عجلة من أمرها فقد دارت مرتين فوق المدينة وكأنها تستغرب استمرار المقاتلين واصرارهم على البقاء ثم اختفت .

على ا لحشائش كان بعض النازحين يأخذون شيئا من الراحة ليعاودوا المسير ... ينظرون الى مدينتهم تدمر ... وجوههم تنطق برعب قاتل , توالت الانفجارات في مناطق مختلفة

.قال ابو زينب ـ هذه قذائف ا لدبابات وا لهاونات

على الجسر ازدادت كثافة الازدحام وبدا الناس بالركض باتجاه البساتين، قال رجل يمسك بطفلة مرعوبة حافية تجمدت الدموع في عينيها ، ا نهم يقتحمون المدينة بالدبابات .

ودّع أبي زينب واخترق الجموع ،على جسر الكوفة كان وحيدا يواجه مئات القادمين ، اللذين ينظرون اليه باستغراب ولكن أحدا لم يعلق بشيء سلب الخوف من عيونهم الاحساس بالأخرين، فهم يجرون كعوالم متباعدة يمسك احدهم يد ابنه بآلية ويركض لا يرى غير الجسر الذي يفصله عن عالم آخر لم تصله الدبابات ولا الجنود ذوي العيون الصفراء .

اية حكايا سيقصونها لأطفالهم عند النوم !! لقد ماتت الاميرة ذات الضفائر الشقراء والعيون بلون البنفسج البري وعاد الجني الى قمقمه المسحور .

على الجانب الاخر لم يلحظ حركة واضحة ولكنه استمر يسمع بوضوح رشقات لا تنقطع من الرشاشات ، كانت قريبة بحيث لم تعد تصله صوتا واحدا كانت مختلفة الصدى ، وفي الازقة الضيقة الخالية أصبح الصدى موحشا , الابواب مغلقة ولا يوجد ما يشير الى اية مظاهر تدل على ان أحدا من سكان البيوت

مازال في الداخل، شعر بشيء من الخوف فأرتجف... أنه يواجه قدرا مجهولا، فهو الوحيد هنا الذي قد يطاله رصاص الفريقين

بدت قبة ضريح مسلم بن عقيل تحت شمس يوم صحو من ايام آذار أقل توهجا ترين عليها وحشة غريبة ،

أصبح أكثر قربا من الشارع العام الذي يربط الكوفة بالنجف وأصبح صوت زخات الرصاص أكثر حدة وصوت أزيز قذائف المدفعية أبحّا له لها ث شرس .

كان المدافعون عن المدينة يتمترسون على جوانب الأزقة المطلة على الشارع العام , توقفت دبابة بعد إصابتها بقذيفة آر بي جي ...قفز بضعة جنود ... سقط بعضهم واحتمى الاخرون بجسم الدبابة المتوقفة .

استدار حول مرقد مسلم بن عقيل ، كانت الجهة المواجهة للشارع العام من القبة قد دمرتها قذيفة مدفع فأحدثت فيها فجوة كبيرة ... على امتداد الشارع كانت الجثث مبعثرة في كل مكان تنبئ بحدوث معارك شرسة ... سمع أصوات رشاشات قريبة وصراخا مؤلما من بعض المصابين ... توقف يدرس الموقف ليقرر هل يستمر في التقدم أم يعود ... شاهد بضع دبابات تتقدم وهي تطلق نيران رشاشاتها الثقيلة بكل الاتجاهات ... أصبح القتال أكثر شراسة وعنفا فانسحبت الدبابات .. سدت الطريق دبابة اعطبها مقاتل كان يعتمر كوفية بيضاء تغطي وجهه ، ثم انسحب الى داخل الزقاق .. التفت ا لدبابات مهشمة ابواب عددا من المحال التجارية ثم انعطفت على الرصيف فسحقت عشرات الجثث المبعثرة ... كانوا جنودا ومقاتلين ... كان المنظر بالغ البشاعة .. احس بمعدته تتقلص وبرغبة .. مجنونة بأن يتقيأ .. بدأ المقا تلون يظهرون بحذر على منعطفات الازقة

كبّر أحدهم فتبعته مئات الاصوات ... سمع صوت وقع حوافر حصان يمشي خببا ... كانت عربة نقل مفتوحة الجوانب يقودها فتى في الخامسة عشر ... كان يضرب الحصان برفق بعصا على جانبيه ليحثه على الاسراع ... على العربة تكدست مجموعة من الجثث البشرية ... كانت ملامحها مغطاة بالدم ... بعضها قد تدلت أيديها فهي تسح على ا لشارع الاسفلتي .. مسح الصبي أنفه بكم دشداشته السوداء وألقى نظرة على حمولته ثم تابع حث الحصان على المسير .....

أية مفارقة..... الصبي اللامبالي بالموت والعمل الذي يمكن أن يكون مؤجلا

عاد الى الجسر .. هدأت حدة القتال فقد تراجعوا الى الحدود الغربية للمدينة، وتسمع الان أصوات قذائف الدبابات على نحو متقطع كما خفت رشقات الرشاشات ... عادت طائرات الهليكوبتر تتصيد المقاتلين، وعبرت السماء التي بدت ذات لون رمادي فاتح ،.

على الحشائش في الجهة الجنوبية لمصنع الاسمنت كان أبو زينب جالسا القرفصاء يتلمس بقايا دفء في شمس ما بعد الظهيرة التي ارتفعت كقرص معدني كامل الاستدارة ولكن لا يوحي بأية انطباعات ... كان الاحساس في الداخل ، كل يفتش في أعماقه ، لم يكن للعالم الخارجي ذاك السحر الذي يوحي به التأمل

على مقربة كان ثلاثة شبان ، أحدهم كان يبكي بصمت ... يضع في حجره رشاشته ، وكان الثاني يتطلع الى الكوفة بإحباط وحسرة ، يتكئ على الرشاش وهو ممدد عل ى الحشيش الاخضر الذي لازال نديا ، أما الثالث فقد كان يجاذب ابي زينب الحديث

ـ حسنا نحن نخسر ... هذا مؤكد ، ولكنا لن نستسلم ... المشكلة هي كيف سنوفر السلاح ... الذخيرة نفدت من معظم المقاتلين ... لقد فعلنا ما نستطيع

ـ ألا تصلكم امدادات

ـ نعم ولكنها شحيحة ولا تكفي ... نحن نحارب حكومة كانت قبل أيام ترعب العالم !! التناقض الذي لا افهمه هو موقف الحلفاء ... بالأمس كان بوش يدعو الى اسقاطهم واليوم يتواطأ معهم !! نحن نشعر بأنا قد خدعنا ... طائرات الحلفاء تتفرج ... كيف يمكن أن نثق بهم !!

المشكلة أني لا استطيع العودة للجامعة اذا ما نجوت ... هل تعتقد أنه من السهل أن أستمع للمحاضرات وأستوعب ؟ ... دروس التشريح ستصيبني بالدوار ... سأرى فيها صور القتال والدم الذي تفجر نافورات صغيرة من أجساد المجاهدين.

ـ هل انت في كلية الطب ؟

ـ نعم في الصف الرابع .

ـ كيف التحقت بالحركة المسلحة ؟

ـ ولماذا لا تسميها ثورة ؟ ! ... فشلنا .. نعم ولكنها ثورة ... أعدم أخي في العام الماضي ... دهمنا رجالهم في ليلة غاب عنها القمر ... اعلمونا أنه مات ... هكذا بكل بساطة ، والاكثر مرارة أنهم أمرونا ألا نبكيه أن نغلق الباب ولا نتحدث مع أحد بشأنه ... اذلال مقصود لانهم يعرفون موقفنا من الميت !! ... أن تنزف بصمت وأن يقتل القهر مشاعرك شيء اكثر بشاعة من الموت ...بمن تعتقد أني سألتحق ؟...ولكن الان وبعد كل هذا واذا ما كتب لي أن أعيش ماذا سيتبقى ؟ !! الذكريات ... نعم ..ولكن الحلم سيموت

تذكر ناديه ... بابا كان جيلكم أفضل من جيلنا ... لا اعني من حيث قدراته أو ابداعاته .. اعني الظروف المتاحة له .. كان بإمكانكم أن تعلنوا آرائكم ... تتظاهرون من أجل مطلب أو موقف سياسي ... كان لديكم فسحة تتنفسون فيها .. إن جيلنا هو جيل القرود الثلاثة ... ليس أمامنا أن نتكلم وليس أمامنا أن نرفض ... لم نخرج في مظاهرة إلا لنصفق أو لنرقص ولو كان الطبال جيدا لهان الامر بعض الشيء ... ولكن يا عزيزتي ... الى أين سيفضي بك هذا ... لقد قادت الوجودية أستاذتك الى الحزب الشيوعي فألى اين ستقودك ؟ ... ألا تعتقدين أن الوجوديه أصبحت موضة قديمة ... والطريق لم تعد سالكة كما في السابق !!... لقد ماتت دي بوفوار.... ولم تنجب الوجودية بعد ساغان عبقرية صغيرة... فهل تعتقدين أنك المرشحة ؟

قال شاب يتوجه بالحديث الى أ بي زينب ـ ما يؤلم أننا لانعرف ماذا سنفعل !!... أين نتوجه ... ماهي الخطوة التالية ؟

صمت وهو يتطلع الى طائرات الحلفاء تتقاطع في الجو باستعراض بهلواني فيما راحت الهيلوكوبترات تطلق صواريخها على المدينة ... قال(ميجر) وهو يتقدم ... لزعامة حزب المحافظين

الشعب العراقي صعب " ... حسنا لابد من إدخاله دورة تأديبية ... أنت " " ياناديه وأنت أيها الشاب مطلوب منكما أن تنهيا الدورة ... تذكرا درجة العبور المطلوبة ! بعدها هناك حديث آخر

ـ هل سنعود ؟

. ـ نعم

ـ ولكن ماهي خططك ؟

. سأعود الى بغداد وارجو أن أجد سيارة في الشامية

ـ هناك باص يذهب الى الديوانية وقد يسعفك الحظ فتجد سيارة تذهب الى بغداد
. ... الحركة بطيئة جدا ولكنها لم تنقطع

. في الطريق أخرج خالد من محفظته مئتي دينار

ـ أخ أبو زينب .. لقد تعبت معي كثيرا ، تركت عملك وعائلتك وغامرت بالمجيئ معي الى الكوفة وأكرمتني الى أبعد الحدود في بيتك ... أرجو أن يوفقك الله ويبارك لك في أولادك , كما أرجو أن تقبل مني هذا المبلغ، لا يمكن أن يكون . تعويضا عما فعلته ،اعتبره هدية للأولاد

ـ ما هذا؟

قالها بحدة وقطب وجهه متضايقا

ـ العياذ بالله ... يا أخي اذا أخذت منك مالا فلن أكون أكثر من سائق بالأجرة لن أكون صاحب واجب تجاه ضيف , احتفظ بنقودك وادعو الله أن يزيح هذه الغمة !! وأن نلتقي بظروف أفضل ... من يعرف فقد أزور بغداد

انزوى في الباص الصاعد الى الديوانية ... كان الركاب بضع نسوة وعدد من الاطفال الذين علمهم الخوف أن يصمتوا ،جمع الاجرة صبي دون أن يتكلم مع أحد وسلمها للسائق الذي لم يدقق في المبلغ ... حين بدأ الباص بالتحرك كبرت النسوة بصوت واحد " الله أكبر .. اللهم صلي على محمد وآل بيت محمد " تطلع الاطفال عبر النوا فذ الزجاجية كأنهم يودعون الشامية ولاحظ أن أحدا منهم لم يبتسم،

الايام تمر وهو أسير فكرة واحدة هي كل حياته الان ،أن يجد عائلته ... أن يضع وجه فاتن بين كفيه ويحدق في عينيها ... يتطلع الى غابات النخيل في جيكور كما كان يفعل مساء كل خميس في البصرة ... يرقب شط العرب يسير الهوينى متثاقلا الى البحر ... أن يشاكس ناديه وهو يستمع الى شروحاتها عن حركة التاريخ الاجتماعي والجدل عند هيغل وأثر الوجودية في الفكر الماركسي في فرنسا ... أن يجلس مع أحمد يستمع اليه وهو يتحدث عن احلامه وطموحاته ... يود أن يحضنهم جميعا ... أن يشعر أنهم قربه وأن يسمع أصواتهم وأن يصغي للخلافات الدائمة بين احمد وناديه ... أن يرى فاتن تعد خلطة السمك ... المشوي ... كانت تذكرهم في كل مرة أن هذه بنت البصرة

الطريقة التي تجعل السمكة مستودعا للفلفل ... ماذا سيفعل من دونهم ... إ ن مجرد التفكير بهذا يرعبه .. لابد أن يراهم أن يعودوا للبيت ... لم يعرف حياة أخرى غير حياتهم ... كانت هي الهدف الذي يسعى له ومن أجله .. كان يجد السعادة في تحقيق طموحاتهم .... يا الهي لماذا استكانوا لا غراء السفر الى النجف !!

توقف الباص عند مدخل الديوانية , صعد شاب يحمل بندقية ويضع على محزمه صفين من الذخيرة وتتدلى على جنبيه ثلاث قنابل يدوية

ـ السلام عليكم ... أرجو من الجميع ابراز هوياتهم

دقق الهويات وشمل الركاب بنظرة هادئة ونزل وهو يتمنى للجميع ليلة سعيدة

بدأ برد المساء يبعث في جسده رجفة خفيفة تزيدها هبات هواء قارص , كان الكراج مفتوحا تتدافع به موجات الريح من كل جانب وعلى امتداد الحائط الوحيد الذي ظل واقفا كان عشرات الافراد يحاولون التخفيف من قساوة البرد , لم يكن هناك من اضاءة وقد بدأ الظلام ينشر ظلالا كثيفة فيما راحت سكائر بعض المدخنين تومض كنجوم كابية .... بدأ رذاذ من المطر يتساقط مثيرا رائحة التراب الندي فألتصق الناس الى الحائط واحتضنت الامهات اولادهن تحت العباءات السوداء

قطع ساحة الكراج يبحث عن فندق يقضي فيه ليلته ... شاهد(باصا) يتقدم من الجانب الاخر فعاد راكضا يدافع ليصعد.. لم يكن الموقف يسمح بأية اعتبارات مجاملة فالجميع يعاني من التعب والانتظار الطويل والخوف , لم يتدخل السائق لتنظيم الصعود بل اكتفى باستيفاء الاجرة من المحظوظين الذين صعدوا ... أغلق الباب وقال بلكنة ملولة وممطوطة ـ الكل في مكانه ؟

لم يرد أحد ..فقال ـ توكلنا على الله

كان الباص يسير ببطء مهتزا يؤرجح الركاب ... صمت الليل يخيم على الطريق ورتم سير الباص يدخل خدرا الى كل جسده المرهق ... مدد رجليه والقى برأسه الى الحاجز الحديد فوق الكرسي .. النسوة بدأن الحديث ... بنت شمسه عمرها ثلاث سنوات ضاعت ...عبد الزهره فقد زوجته وولديه فقد كان كل منهم يركض باتجاه مغاير ... كان القصف لا يترك فرصة للتفكير باختيار المكان ..... عبد المنعم ماتت زوجته .. ظل يومين لا يعرف كيف ينقلها للمقبرة ... الطرق

مقطوعة والرصاص أعمى .. ظل الرجل يردد وحده اكرام الميت دفنه ... حقا . ياسيد ميجر ... انها دورة كاملة والتدريب سيأتي بالنتيجة المرجوة

وضع السائق شريطا لداخل حسن ...(لو رايد عشرتي تطول ....حجي الجذب لا تطراه)

صرخت امرأة ـ أهذا وقته؟! ... المقتل أفضل .... أريد البكاء ... منذ يومين والدموع ترفض أن تجري أكاد أختنق ... يا ناس أريد أن ابكي

أوقف السائق الشريط الغنائي وقال ـ كما تشاؤون

عاود المطر سقوطه , الماسحات لا تعمل ... السائق يحدق الى الطريق الذي يلفه ظلام ثقيل ويطبق عليه صمت موحش , لم أستطع تبديل الماسحات لان السوق مقفل ... أحس بأن هذا عذر غير مبرر , أحمدوا الله أني قبلت نقلكم , لم يعلق أحد . فما في داخل أي منهم أكبر من اية مأساة محتملة على الطريق

ازداد تساقط المطر ولم تعد الرؤية ممكنة , توقف السا ئق وقال

! ـ لابأس سنضطر للتوقف قليلا ... يمكنكم أن تناموا

بدأت بعض النسوة نواحا خفيفا ...أخذ الرجال يدخنون ... كانت رائحة الدخان عطنة ثقيلة فأحس بحرقة في عينيه ... الاطفال غفوا على المقعد أو في أحضان أمهاتهم ... التيار يستبيح الباص من كل جانب ... أحس أن قدميه تتجمدان ... فكره وحده الذي كان بعيدا ... عند فاتن ... حينما تفرح تتراقص غمازة على خدها الايمن وحينما تضحك تغمز بعينها اليسرى بنزق عفوي بالغ الحلاوة .. قال لها ضعي قشة على الجفن لتكف عن هذه الحركة ... كان متضايقا ... أقسمت أنها لم تك منتبهة لهذه الحركة ... قال ..نعم .. ولكن الاخرون ... قالت ناديه أنها تقرأ قصة " الجحيم هم الاخرون " .. بدأ النعاس يأسره رغم البرد ... سقط رأسه على صدره ... أيقظته امرأة ... يا أخي توقف عن الشخير ... أنت لاتدع أحدا . ينام ... رفع رأسه وصمم أن يبقى مستيقظا

الساعة الرابعة صباحا ، أصبح البرد لا يطاق ... تكور على نفسه ... رفع قدميه ليضعهما تحته ويجلس متربعا عله يكسب بعض الدفء ... المطر الذي يسح منهمرا كشلال توقف فجأة وبدأت الغيوم بالانحسار ... كانت تتقطع مسرعة . وكأنها أنهت مهمتها بنجاح ... بدت النجوم شائخه متعبة

أدار السائق محرك الباص ... رفعت امرأة صوتها " اللهم صلي على محمد وآل بيت محمد " .. رددت البقية .. عليه وسلم

بدأ الفجر يكشف الشارع الاسفلتي الممتد باستقامة فيما كانت اسراب من طيور مهاجرة تقطع السماء وهي تحرك اجنحتها بآلية وتتخذ اشكالا هندسية متنوعة في طيرانها.

مع هبات الهواء الباردة بدأت رائحة الصباح المنبعثة من الحقول على جانبي الطريق تشيع شيئا من الحيوية , أستيقظ الاطفال فامتلئ الباص بصخب أفتقده ، شعر بأن الحياة تستمر .

توقف الباص عند مدخل بغداد حيث كانت نقطة تفتيش عسكرية .. على العارضة التي تقطع الشارع مربع خشبي كبير مصبوغ باللون الاحمر كتب عليه " قف للتفتيش " بدا الامر تأكيد رسمي لوجود السلطة التي تقاتل في مناطق أخرى لأثبات وجودها.

على الرصيف جندي يلوح للتنبيه بالتوقف , تمتم السائق

ـ الله الستّار .

التفت الى الركاب وقال

اخواني هوياتكم لتفادي التأخير-

صعد جندي طويل القامة ذو وجه مستطيل يميل لون بشرته الى الصفرة , عيناه صغيرتان تأخذان شكل عيني سحلية صحراوية تدوران باستمرار ولا تخفيان كمية ا للؤم التي توزعانها على الجميع ... ربما سيكون مكتئبا ان لم يجد مذنبا في هذا الباص القادم من وادي الصبار .

أجال نظره في الركاب وسأل السائق

ـ من أين ؟

ـ من الديوانية

ـ اولاد ألـــ .....

كانت شتائم بذيئة جعلت النسوة يخفين رؤوسهن أما الرجال فقد كان صمتهم قهرا مكتوما

ـ هوياتكم , سترون لن يفلت منكم أحد ...كلاب

توقف عند خالد ـ انت أيضا من الديوانية

ـ أنا من بغداد .. كنت بعمل خاص ولا علاقة لي بالأحداث

ـ أحداث .... ابن الكلب ..... كلكم خونة ... جبناء ... هويتك

قدم خالد هوية الدائرة التي يعمل بها وأمرا اداريا بإجازة لمدة خمسة عشر يوما

ـ لماذا هذه الشتائم ؟ أنت تمثل الدولة وعليك أن تحترم المواطنين أثناء عملك الرسمي

ـ نعم .... عملي الرسمي أن أسحق امثالكم ... ثم ما هذا ؟

رمى الهوية والكتاب باستهانة

ـ هوية الاحوال المدنية ؟

ـ لماذا ؟ هذه هوية الدولة ... وهذا كتاب رسمي

ـ قلت هوية الاحوال المدنية ... هذا ليس عملك... لا تؤخرني

ـ ولكني لا أحمل هوية الاحوال المدنية .... منذ اكثر من عشرين سنة وهوية الدائرة هي المعتمدة .

تنبهت في خالد روح المشاكسة رغم ادراكه بعدم جدوى ما يقوم به ... كان يعرف لماذا يصر على هوية الاحوال المدنية ولكنه تجاهل ذلك

ـ هل تم الغاء الهويات الرسمية؟ صدقني لا علم لي بذلك

ـ أتسخر ... حسنا أنزل واذهب الى الباص الاسود المجاور لغرفة الادارة .

كان الباص الاسود مما يستعمل لنقل المتهمين , أدرك انه في مثل هذه الظروف فأن ركوب الباص يعني مشاكل لا حصر لها قد تكلفه أشهرا في المعتقلات ... قد ينسوه !

نزل واتجه الى غرفة الادارة ... كان ضابط شاب يقف عند الشباك معطيا ظهره الى الباب

ـ صباح الخير سيادة الملازم

استدار بهدوء وتطلع الى خالد متفحصا

ـ أهلا ... نعم

كان في الخامسة والعشرين على أبعد تقدير ، أبيض البشرة ذو شعر كستنائي وعينين حادتين ولكنه على العموم يعطي انطباعا بالطيبة

ـ سيادة الملازم .. أنا موظف حكومي ولدي هوية رسمية بالإضافة الى كتاب بإجازة اعتيادية صادر قبل اربعة ايام .... الاخ المكلف بتدقيق الهويات يصر على أن اقدم له هوية الاحوال المدنية التي ليست بحوزتي الان لاني لم أك أعرف أن هويات الدوائر ملغية

ـ ملغية

قالها باستغراب

ـ لا ولكن هوية الاحوال المدنية مطلوبة كتأكيد اضافي

مد يده وتناول من خالد الهوية وكتاب الاجازة ... قرأهما

تعال معي -

توقف عند باب الباص

ـ فؤاد ... اسمح للعم بالصعود... وضعه سليم

ـ ولكن سيدي ... انه لا يحمل هوية الاحوال المدنية

ـ لابأس ما لديه يكفي

ـ لا ... سيدي لا يكفي

أحرج الضابط ... زم شفتيه كاتما غضبا بدأ يتصاعد

ـ فؤاد

ـ نعم سيدي

ـ أترك الباص وتعال

قفل الضابط عائدا ... رمى الجندي الهويات وشتم الضابط

ـ سيرى ما سأفعله

رشق خالد بنظرة حاقدة وهو يغادر الباص مداريا غضبه بقضم شواربه والعبث بحزامه الجلدي اللامع فيما توقفت عيناه عن الدوران اللئيم .

صعد خالد ثانية الى الباص الذي تحرك بسرعة .

قال السائق ـ لقد نجوت ياعم.

"قالت امرأة ـ والله ياحاج لقد قرأت لك سورة " قل هو الله أحد

شعر بالامتنان .. يقال أن المصائب توحد الناس ، تجعلهم أكثر قربا وربما أكثر موضوعية ... هل يدعو الله لتأتي كل المصائب مجتمعة عسى أن توحد كل العراقيين :

كان منهكا الى أبعد حد ، لقد تحمل ضغطا هائلا كي يبقى محافظا على توازنه ... كلمة واحدة في غير المكان الملائم في سياق حديثه ولن يستطيع أن يتصور ماذا يمكن أن يحصل له.

ارتمى على الكرسي وأغمض عينيه ، لم يعد يسمع ضجيج الاطفال ولا ثرثرة النسوة وحتى أنه لم يعد يشم رائحة الدخان العطنة .... حسنا ... لقد أصبح الموقف واضحا ... فريق امتلك الحرية في الوقت الضائع وفريق يمتلك القوة التي أعطيت له في الوقت الصحيح .

كانت أم شهلة عند الباب تساوم بائع خضروات متجول على حزمة من البقدونس، لجوجة تواصل الحديث مع البائع تعويضا عن توقف زياراتها للآخرين وعن ... عدم زيارة نساء الشارع رقم 10 لها ... الكل منكفئ على همومه بانتظار الغد ... أما هي فأن اليوم أو الغد سيان أو لا فرق كبير بينهما , ما يشغلها أن هذه الاحداث ستؤخر امكانية الحصول على عرسان ملائمين كانت تسعى دائما الى خلق صداقات واسعة مع العوائل التي لديها شباب بعمر الزواج ... عسى... أما الان فلا يعرف أحد ماذا سيكون مصير الشباب ! أية حرب جديدة سيساقون لها وأية مصائب سوف يواجهون.

قطعا هم الان بعيدون تماما عن التفكير بالزواج ... بالطبع الحق معهم فمن يستطيع التفكير بذلك

ـ ها.... أبو أحمد انشاء الله وصلت للعائلة ؟

كانت تعطي صوتها أكبر شحنة من المواساة والتعبير عن المشاركة فيما راحت تعابير وجهها تكتسي طابع الاسف وخيبة الامل .

لم يك مستعدا للحديث معها ... كان متعبا .. مقهورا .... ومحبطا

قالت ام شهلة لزوجها

ـ الرجل يحتضر ... وجهه أصفر ذابل وعيناه غائرتان ويبدو عليه الهزال كأنه لم ينم ولم يأكل ..... أعانه الله ، كيف كان يقضي أيامه ... هل تعرف أني أعجب أحيانا من سلوك النساء ... كيف استطاعت زوجته المغادرة لتستمتع بحفل عيد ميلاد ابنة قريبتهم والامور كلها لم تك تبشر بالخير ... عجائب !!

لم يرد أبو شهله ..كان يعرف أن زوجته لن تتوقف .. يمكنها أن تقص الموضوع الواحد بألف طريقة وأن تظل تتساءل عن احتمالات لا حصر لها، كان يعلم أن الحديث معها لا يفضي عادة الى اية نتيجة

ـ لو كانت هنا لوفرت على زوجها كل هذا التعب

ـ أعاننا الله على المشاكل

ـ ماذا تقصد ؟

بدت لهجتها خشنة ، مهددة

ـ لا شئ نحن دائما محتاجون الى معونة الله تعالى ... أليس كذلك ؟

ـ كلا أنت تقصد شيئا آخر ولكن هذا ليس وقته .... يجب أن نزور الرجل , سأعد له بعض الطعام .. هل ستأتي معي؟

. ـ لا أعتقد أن الوقت ملائم ... قلت أنه متعب ولهذا سيكون بحاجة للنوم

ـ ولكني سأعد له شايا على الاقل

كان من الواضح أن الفضول بتآكلها وأنها لن تصبر حتى الغد ، يعرف ان ثنيها عن ذلك لن ينجح وقد تعوّد أن يتناسى أنها تحدثت معه حول الموضوع ولهذا يتركها تعود بغنيمتها من الاخبار التافهة التي تظل ترددها على مسامعه عشرات المرات بأشكال متنوعة ولا تتركها الا حينما تحصل على " تعويض " آخر لتبدأ المشوار ثانية

فتح الباب وهو يشعر بقلق غامض يحس كأ نه نسي شيئا كان يفكر به للتو... فمه كان جافا دون أن يشعر بحاجة للماء

في يده رجفة خفيفة ربما جراء الارهاق , ارتمى على الاريكة في الصالة .. لم يستطع الذهاب الى غرفة النوم , لا يستطيع أن يتحمل رؤية حاجيات زوجته على طاولة الزينة أو يشم الرائحة الانسانية العذبة , سبع وعشرون سنة كانا دائما معا , يختلفان وسرعان ما يعاودان الحديث كأن لم يكن هناك من خلاف , زارا معا كل مدن العراق ... شماله وجنوبه .. رافقته في سفراته الى معظم دول العالم , من جنوب آسيا حتى اوروبا .....كانت تردد دائما , لياليا الحلوة بكل مكان ... دائما هادئة تتحرك بطفولة محببة وتشاكسه بعذوبة شقية , سنوات طوال مليئة بذكريات هي كل تاريخه .

غسل وجهه ورمق غرفة أحمد من أسفل السلم ... كان الباب الموارب عليه " بوستر "كبير للمغني ديموس روسس ... ود لو يلمس الصورة كي يحس بنظرات أحمد عليها , لم يكن يتدخل بهوايات ولديه ولكنه كان يعرض وجهة نظره ... عاملهما منذ الصغر على انهما صديقان .....لقد ألغت هذه العلاقة المتفهمة والحميمة الحواجز بينهم , كانا قريبين منه يعرضان مشاكلهما عليه بصراحة وأحيانا بحياء

. ـ آسفة ابو أحمد ولكني أعتقد انك بحاجة للشاي ... لا يقتل التعب غير الشاي

. ابتسمت بتودد وأضافت ـ على وجه الخصوص اذا " خدرته " أختك أم شهله

. ـ شكرا أم شهله لقد جاء بوقته .... أنا فعلا بحاجة الى الشاي

تقدمت أم شهله الى الصالة وهي تحمل صينية عليها ابريق زجاجي يتصاعد منه البخار فينشر رائحة خفيفة منعشة .. كان هناك ايضا " إستكان " شفاف يشع نظافة و كاسة من الكرستال مليئة بالسكر .

ـ أليس هناك من أخبار

ـ كلا لقد مشيت عشرات الكيلومترات في البساتين والمواقع المهجورة والخالية والتي امتلأت بالمهاجرين من الكوفة والنجف والمناطق المحيطة ... أتصفح وجوه الناس ... كما زرت قرى ومدن لم يخطر على بالي في يوم ما أني سأزورها ... ركبت " لوريات" الجص والحصى ... حشرت مع عشرات الاشخاص على السطح ساعات عدة .. كنا وقوفا وحينما يتأرجح" اللوري " كنا

نتحرك بذات الاتجاه كتلة واحدة !! ... كان هناك أيضا باصات أخرجت للعمل بحكم الحاجة.

ـ هل هناك الكثير ممن غادروا مساكنهم ؟

ـ نعم ... عشرات الالاف , هل تصدقين .. كان بعضهم يمارس طقوس الفرح قي البساتين , يستمع الى أغنية أو يلهو مع أطفاله ... كانوا كمن يخشى أن ينسى ذكرياته !! ... رغم زخات الرصاص التي لا تنقطع وزخات المطر التي تفاجئهم فيحتمي بعضهم ببعض فقد كانوا محظوظين

كنت أود أن أرى فاتن وأحمد وناديه ... كنت أتشهى أن أجدهم أن اسمع ضحكات أحمد المرحة الرنانة... أن استمع الى مناقشات ناديه ومشاكساتها مع أخيها ، أن اشرب المرح المشع بالبهجة في عيون فاتن ... ولكني كنت أعود دائما باليأس يأ كل في جوانب روحي فأحس بالخواء .

ـ أبو أحمد انتبه لنفسك ... سيعودون ويجب أن يجدوك قويا كما يعرفونك أبو شهله يقول انك لا تلين بسرعة ... قوي ايمانك بالله ... ولكن ماذا ستفعل؟

لاول مرة يرى ام شهله ايجابية , سكبت الشاي وقدمته

ـ تفضل .. يمكن أن تضيف السكر حسب رغبتك .

ـ شكرا أم شهله ...ٍسأرتاح الليلة ... غدا سأعود الى الكوفة

ـ الوضع في بغداد غير مطمئن ! أمس تم اجتياح مدينة الثورة ... طوّقها الحرس الجمهوري وضربتها الهيليكوبترات ثم جرى اقتحامها من قبل قوات خاصه ... حدثت اعتقالات واسعة... يقول عبد الرزاق ، يسكن خلف بيتكم ، والذي يعمل بجهاز المخابرات أن الاجراء كان وقائيا لان المعلومات كانت تشير الى توقع تحرك واسع في الثورة والشعلة والحرية ... على اية حال ، هل شاهدت القتال في النجف ؟

ـ الى حد ما ولكني شهدته في الكوفة ... معارك رهيبة بين الدبابات والمقاتلين ... كانت الجثث منتشرة على الارصفة وفي الشوارع ... كانت صواريخ طائرات الهيليكوبتر لا توفر شيئا أو أحدا .

ـ ولكن كيف يستطيعون استعمالها في ضرب المدن ؟ قالوا انها ستستخدم لنقل المسؤولين فقط !!

ـ نعم ولكني أعتقد أن الامريكان يرغبون بتأديبنا !! ما يجري مشاهد عبث صنعتها الدعاية الامريكية

!! ـ العياذ بالله ... وما ذ نب الشباب

! ـ لا ادري

استأذنت أم شهلة .... عاد وحيدا ليس معه غير الظلام وذكريات متداخلة وشعور محبط يشل حواسه في خضم مشاهد القتل ومنظر الجثث تحملها عربة ... بكى الشباب الذين دفنوا احلامهم في الطرقات والذين سقطوا في شوارع لا يعرفوها ... ولكنها ستظل تتذكرهم ... بكى عائلته التي لا يعرف أين هم الان

كان بحاجة الى أن ينام ... أن يغفو ممدا ، فاردا جسده المتعب , عيناه يحرق جفنيهما ملح فترمشان ثم تنغلقان على دمع يخزهما ، رأسه مثقلة بطنين حاد يضج في أذنيه ... تقلب على جنبيه .. يهرب النوم كأنه قبّرة لا تقف ولا تطير .. دائما على مقربة ... كيف يغفو ! فتح المذياع باحثا عن شيئ ما . شيء ضائع... ربما خبرا أو أغنية ... شيء قد يعيد اليه توازنه ، , في المدن التي استولى عليها المقاتلون كان الناس يتصرفون بألفة ومودة ... بشفافية ... استغرب كيف يستطيع هؤلاء الناس التصرف على هذا النحو رغم كل ما يعيشوه ..... أحلام لا يسمح لها حتى أن تحكى ...كوابيس عليهم أن يناموا معها في النهار ... يتحدثون بهدوء رغم ما يترسب في عيونهم من مشاهد البؤس والدمار .

أدار مؤشر المذياع ... كانت محطات الاذاعة العربية تقدم ما يطلبه المستمعون !!...من يتذكر ... عام 1956 كان صوت عبد الناصر يصل الى كل قرية في هذا الوادي ... وبعكس التيار في دجلة والفرات الذي يندفع جنوبا, كان أبناء هذا الوادي يندفعون شمالا ... يتدفقون في الشوارع باتجاه دوائر الدولة ... حين رفع صورة عبد الناصر في ساحة المدرسة كا ن يرفع مذكرة احتجاج .. وحين دخل السجن كان يشعر انه قد انتصر ... اليوم لم يدخل السجن ولكنه يشعر أنه منكسر ومحبط .... لقد مزقت مذكرة الاحتجاج .... المسؤول يتحدث عن الانتصار ... صوته الرخو ينز كذبا , أغلق الجهاز .... حرقة الملح في عينيه تزداد , قالت فاتن .. خالد أفضل ما تفعله للقضاء على الحرقة في العينين ، شاي دافئ دونما سكر ثم دائرتين من اصبع خيار، أعد الشاي ولكن لم يكن في ا لثلاجة خيار ... صعد الى غرفة أحمد ... عصر قلبه رؤية سريره الفارغ ... حقيبة كتبه الجامعية ... فتح كتابا فسقطت منه قصاصة صغيرة ... التقطها ..

كانت رسلة آما ل ... دمعت عيناه ... الصغار يعشقون والقلوب الغضة تتفتح للحياة ... هل ستجد الفرصة لذلك .. أعاد الورقة وتلمس الوسادة برقة مغمضا عينيه يستذكر وجه أحمد الودود .... آه يا ولدي ... قالت فاتن سأطلب من أحمد أن يملا البيت أطفالا ... أقسم

إني سأتولى تربيتهم ، لن أدعهم يضايقون أمهم ... خالد يجب أن يكون لديك عشرة أحفاد....في الشيخوخة ليس هناك أجمل من الاحفاد فهم ليسوا امتدادا للحياة انهم الحياة ذاتها.

خالد كم أقلق على أحمد انه طيب ، سلس ، في زمن صعب ... انه لا يتمتع بالحذر الكافي , يقف من أصدقائه أو بالأحرى معارفه وزملائه على مسافة واحدة ..... أعتقد أن هذا غير مقبول ... المسافات مهمة ، وفرز الاصدقاء على هذه المسافات غاية في الاهمية لان ذلك يعني اننا سنتصرف مع كل مجموعة على نحو مختلف .... اعرف كم تهوى الشعر ... اسمع:-

" أحباب وسط " الكلب

وأحباب منّه ودون

"وأحباب بس" للوكت

وأحباب ضحك اسنون

أحباب في قلوبنا.... وأحباب بين بين ... وآخرون لقضاء الوقت ... نلتقي بهم وقت الفراغ ... حينما لا يوجد شيء يشغلنا ... والقسم الاخير ليس لدينا شيئا لهم غير ابتسامة عابرة ، ألست معي أن هذا هو الفهم الواعي للعلاقات الاجتماعية ... وأنه يمكن أن يمنحنا الحصانة في عدم الخلط ... قال لها ... يعني

. حسنا بدأت بنصف اقتناع ... وضحكت-

يوافقها الان بالرأي باقتناع كامل .... أحمد طيب القلب ... ضحكته مجلجة رنانة ... دائما لديه طاقة للمرح والحب والحياة ... ولكن لو يراه !! ليكن كيفما يشاء ... ليعش الحياة التي يريد ... فقط أن يراه ... شعر بيده ترتجف وبالدمع المعجون بالملح يحرق عينيه ... لم يقو على الاستمرار بالوقوف ... جلس على

سريره ... أحس بأن جدران الغرفة تعصره وأنه يختنق ... كانت الذكريات تضج كلها مرة واحدة... تتسابق يأخذ بعضها بخناق البعض .

شمس آذار تسلل الى الغرفة على استحياء ،كسولة ،باهتة ،تنسكب على وجهه فكأنها اصابع طفل تلامس خديه برقة وحنو ... كانت غيوم متقطعة تأسرها تارة وتطلقها أخرى ... لم يستطع أن يفتح عينيه .. كان النعاس لايزال يثقلهما ولم يكن ذهنه صافيا ... كان يشعر أنه في حلم ثقيل وأن اصواتا مختلطة تطرق جوانب رأسه ... ازداد الطرق ضجيجا

ـ أعتقد أنه لايزال نائما ... لم أشاهده يخرج

كان هذا صوت أم شهله ... نهض متثاقلا ... كان عند الباب جمال على دراجة هوائية وكانت أم شهله تطلب منه الاستمرار بمناداته

ـ منذ نصف ساعة وأنا أطرق الباب ، لقد قررت أن أعود لولا جارتكم .... أين أنت يا رجل ... لقد افتقدناك ؟

ـ أهلا جمال تفضل

دخلا الصالة بعد ا ن ترك جمال دراجته في مدخل البيت

ـ لم أفطر بعد ... هل تساعدني في المطبخ

ـ سأساعدك ... ولكني أفطرت

ـ كيف حال العائلة ؟

ـ بخير والجميع يفتقدوك ... نحن قلقون عليك .... يبدو أنك لم تستطع الوصول الى الجماعة ؟

كلا ... كانت أياما مرهقة و الالم يمزق رأسي -

ـ هل لديك اسبرين ؟

ـ نعم لدي علبة في الخزانة ... شكرا ذكرتني به

تناول قرصين من الاسبرين وجلسا في الصالة ... كان خالد توّاقا لسماع أخبار الاصدقاء ... حين يتوصل المرء الى قناعة ما بشأن ما يفكر به فأنه يتركه الى مواضيع أخرى وربما يكون أكثر تركيزا وبالتالي أكثر قدرة على التوصل الى نتائج ايجابية , كان مدهوشا من التعارض الذي يتمثل في

الموقف برمته والذي كانت تغطيه مشاعره الخاصة ولهفته على عائلته والقلق الذي شل تفكيره والذي لايزال يسيطر على حواسه ... الى أين ؟... ولكن ما جدوى التساؤل وهل بإمكان اي جواب مهما كان ، أن يكون مفيدا !!حسنا ولكن أيضا ألا يمثل التساؤل بحد ذاته اهتماما مشروعا !! أليس الوطن للجميع ؟ الى أين سيقودهم كل هذا، ثم أخيرا كيف سيتم حل المشاكل التي ستتخلف عنه ... أحمد وناديه وكل الشباب الذين من عمرهما ماذا سيعني المستقبل لهم !!أية موازنات سياسية ستظل في وجدانهم عند التعامل مع الاخرين !!

ـ لقد عاد ابن أختي أمس ... تعلم أنه ملازم في وحدة مشاة وأنه كان في الكويت ... يقول ان الحلفاء قد دمروا معظم الوحدات واتلفوا الاليات العسكرية ... كنا بدون أية حماية من الطيران وكان الحلفاء من العرب يتسابقون عندما يتعلق الامر بضرب الجنود ... كانوا يتصيدونهم من الجو .. لقد كانت بالنسبة لهم حفلة سمر في الصحراء العربية !! سمح الامريكان لهم بالمرور الى البصرة دون اية قطعة سلاح .... اضطر الضباط الى نزع رتبهم قبل الدخول للبصرة ...كانوا في ا لبصرة يعتقلون الضباط ويسمحون للأفراد بالمرور... تصور انهم طوال أكثر من عشرة أيام قضوها مشيا ويقتاتون على ما يجدونه في البساتين أو الحقول ! كانوا يختبئون نهارا ... ظل هو والعقيد الذي معه ثلاث ليال في البصرة وضواحيها هل تصدق انهما طرقا أبواب بعض الاهالي لطلب رغيف من الخبز

من اطرف ما يرويه انهما سألا امرأة بعض الخبز ... نظرت اليهما ثم قالت

ـ لابأس سأجلب لكما الخبز ولكن قبل ذلك أود أن أقول لكما بأنكما بالتأكيد ضباطا ولستم جنودا !!

وحين دخلت المرأة تقدمت طفلة في الخامسة بيدها قطعة خبز كانت تقضمها وقالت

ـ عمي ما عندي غير هذه ... أبي جندي راح للجبهة

بكى العقيد وقبل الطفلة وغادرا قبل أن تعود المرأة ... يقول انهما عصرتهما تداعيات ما وصلوا اليه ... أعني الجيش !

ـ هل شاهد سقوط البصرة بيد المقاتلين ؟

ـ نعم ... بعد العودة كانت جموع من العسكريين تجوب الشوارع ، لم تك هناك من واسطة نقل كما لم تك هناك اية امكانية لاي نوع من الانضباط ... كانت

عودتهم على هذا الشكل المهين اكبر من اية حملة دعاية لتحريض الناس الذين كانوا أصلا مشحونين للآخر ... كان التذمر يجوس في الشوارع وفي البيوت وهكذا انفلت الزمام واندفعت حشود غاضبة الى مديرية المخابرات ومقر المحافظة ومراكز الشرطة وموقع البصرة .. استولى المهاجمون على كافة المواقع بسهولة فقد ترك المسؤولون المواقع وهرب المكلفون بالحراسة... بسرعة تشكلت مجموعات مسلحة ومنظمة من المهاجمين لحفظ النظام ولمتابعة الجهات الأخرى..

صمت قليلا كأنه يحاول أن يتذكر التفاصيل ثم تابع وهو يضحك

ـ لقد استغرق الاستيلاء على مقرات الحكومة بضع ساعات أما هدم أو ازالة الجداريات والنصب التذكارية فقد استغرق أياما ... كانت في منعطفات الشوارع وفي الساحات العامة وعلى واجهات المدارس والمباني ... جدارية ساحة سعد في مدخل البصرة احتاجت الى أن تسحب بواسطة دبابة ...ولكنه غير متفائل بإمكانية أن تنجح الحركة

ـ لماذا ؟

ـ يقول ان الحركة تفتقر الى العديد من مستلزمات النجاح ... كما أن من الواضح أن الامريكان لا يريدون لها ذلك رغم كل ما قاله بوش ... سمعت أمس اشاعة أن شوازكوف استدعى احد قادة الحركة ليستمع منه الى مطالبهم وبعد اقل من نصف ساعة توصل الى قناعة بأنه ليس هؤلاء من تبحث عنهم أمريكا!! وهكذا صدرت الاوامر بعدم التدخل !!!

سمعا طرقا على الباب ...كان أبو شهله يتدثر بروب صوفي سميك ويضع على رأسه طاقية تغطي حتى ما تحت الاذنين ...تتدلى شواربه الكثة البيضاء على زاويتي فمه ... كان شاحب الوجه يعاني من رشح حاد

ـ آسف لآني لم استطع زيارتك امس ، كانت نوبة الرشح بأعلى حالاتها

ـ تفضل ... لابأس .. الحمد لله على سلامتك

حيا جمالا وجلس ... كان من الواضح أن لديه ما يود قوله

ـ لقد ستر الله بالأمس فقد كان من الممكن أن تقع مجازر لاحد لبشاعتها .... كانت مدينة" الثورة " تحضر لاجتياح بغداد ... تصوروا أن يقع قتال داخل الاحياء السكنية ... بالتأكيد سيتحول الى حرب أهلية

لم يعلق أي منهما وحاول جمال أن يذهب بالحديث باتجاه آخر

ـ لقد دخل الجيش مدينة كربلاء بعد قتال ضار وقد أنتشر المقاتلون في البساتين المحيطة.. كان القتال رهيبا والذي حسم المعارك طائرات الهيليكوبتر ... ظلت الجثث في شوارع المدينة فقد منع الاهالي من رفعها وذلك بهدف بث الرعب في نفوس المقاتلين .... في النجف دخل الحرس الجمهوري والقوات الخاصة أطراف المدببة ويقال أن قتالا عنيفا جرى في المقبرة

قال أبو شهله ـ يا أخي هذه المقبرة عجيبة فعلا .. مدينة !! بيوت وشوارع , تصوروا أن مدينة العاب الاطفال تشرف عليها مباشرة ..... في الاعياد تصبح المقبرة أزهى من مدينة النجف !!

كان أبو شهله موظفا في احدى الوزارات وبعد سبع وعشرين سنة قضاها في خدمة متصلة، كان خلالها مثالا للموظف المنضبط الذي لم يتأخر عن مواعيد عمله ولم يك في يوم ما أول المنصرفين أحيل على التقاعد لانه لم يستطع تخفيض وزنه عن الحد القانوني المحدد لمرتين ... كان هذا السبب الذي ذكر في الامر الوزاري ولكن الحقيقة كانت غير ذلك .... قال له موظف الحسابات يوم استلام الراتب ... أبو شهله مائة وخمسون فلسا ... كان يمد يده بكراس " الشجرة " ... قال أبو شهله لقد قرأته أمس في سامراء ,, كنت في زيا رة " للحسن العسكري " وكان الكراس مطبوعا على صفحة واحدة ومعلقا على الباب ...أشر الموظف أمام اسمه رفض الشراء !!! قالت أم شهله .. هذا الرجل يثير دهشتي بأمرين ... حبه " للباجه " واهتمامه بشاربة ... أنظروا اليه انه باستمرار غاية ... في الاناقة ... لا تهديدات بوش ولا أخبار القتال يمكن أن تلهيه

قال لها خالد ... أم شهله أنت فعلا مظلومة مع أبي شهله لأ نه بالكاد يخصص لك نصف وقته لآن النصف الثاني للشوارب .... ردت ضاحكة ... صحيح ..." شفت " شواربه وتغزرت بيه" ولولا شواربه " ما جنت ألفّيه

قال جمال ـ هل ما زلت مصرا على الذهاب اليوم ؟

! ـ نعم.... وهل لي غير ذلك

ـ دعني اذا أحصل لك على اذن رسمي ... لي صديق قريب لأحد قادة الحرس . الجمهوري في قاطع الحلة

قال أبو شهله ـ في الحلة وكربلاء ظلت الجثث في الشوارع وعلى الارصفة لايجرؤ على رفعها ، مسموح فقط للكلاب السائبة الاقتراب منها لآنها بحراسة الدبابات !!

لم يعلق جمال تشاغل بالنظر عبر الشباك الى شجيرات البرتقال في الحديقة ... كانت الثمار الصفراء والتي يشوبها شيء من الخضرة تنشر رائحة عبقة وتتمايل مع حفيف الاغصان ... تذكر بساتين البرتقال في كربلاء الممتدة على ضفتي النهر ... شعر بشيئ ما يستفزه ... هواء ساخن يهب على دماغه فيتعبه ... سترتوي أشجار البرتقال في كربلاء من دماء أبنائها ... كانوا يحلمون بتناولها ولكنها اليوم تتشرب جذورها بدمائهم !!

استأذن جمال ليرتب موضوع الموافقة ... كان أبو شهله ساهما

ـ القاتل والقتيل من هذا الوطن .... أية مأساة !!

غرق ابوشهله بنوبة سعال حادة وبدأ يقرفص جسده ... رفع درجة حرارة المدفأة وقربها منه ثم ناوله كأسا من الماء الدافئ

ـ آسف لعدم وجود ا لليمون .. .. لماذا كلفت نفسك بالخروج ... واضح أنك لاتزال مريضا

ـ صحيح ولكني اشتقت للحديث معك ... لا يزورنا أحد .. الكل مشغول والمواصلات شبه مقطوعة ... بعض النسوة في الشارع يزرن ام شهله ... ثرثارات وما يهمهن هو تداول الاشاعات ..... هل شاهدت القتال ؟

ـ نعم الى حد ما ... القتال غير متكافئ ... لولا بسالة المقاتلين وتصميمهم لانتهى كل شيء خلال بضع ساعات ... الدبابات وطائرات الهيليكوبتر مقابل الرشاشات الخفيفة وبضع صواريخ من قاذفات آر بي جي 7 ... كان هناك عمليات قتل واسعة

ـ حقا ... الاوامر صريحة ... لاشيء غير الابادة ... تعرف سلمان ...؟

غمز بعينه باتجاه المسكن المقابل وتابع

ـ عاد صباح أمس من كربلاء مع " لوري " محملا بالسجاد والاواني المنزلية وصناديق مختلفة ... تقول أم شهله أنها تحتوي على تحف ومصوغات ذهبية ..

تعرف أم شهله حين تنوي جرجرة أحدى النسوة بالكلام !! لم يكفهم الكويت جاء الان دور المدن العراقية .... الغزو يبيح الغنائم

ـ وماذا تتوقع ؟

ـ طبعا لا أتوقع شيئا آخر ... هل سيحضر صديقك الموافقة اليوم ؟

ـ أرجو ذلك

ـ سأنادي على أم شهله لتعد لنا القهوة ... لدينا قهوة عربيه بالهال الجيد ، حباته مكتنزة ، داكنة ورائحتها لذيذة .

. خرج الى الممر لينادي على زوجته من خلف السياج المشترك

عاد ليقول

ـ أبو أحمد , فتاة عند الباب .... ربما لزيارتكم

خرج خالد ... كانت فتاة في العشرين تلف جسدها بعباءة وتظهر وجها نضرا

ـ عمو أنا صديقة ناديه ... هل أستطيع رؤيتها

ـ آسف ... لا أحد غيري في البيت ... انهم محصورون في النجف ولا أعرف متى يعودوا

ـ شكرا

ـ ولكن اذا عادت .... ما اسمك ؟

ـ رويدا .... جيران بيت آما ل

شعر خالد بأن دفقة نور مفاجئة تتسلل الى قلبه ... كانت تريد أن تقول أنها جاءت من طرف آ مال التي تريد أن تطمئن على أحمد الذي انقطعت أخباره ... يا الهي .... المشاعر الرقيقة ... الاهتمامات الصغيرة لازال لها مكان في هذا العالم ... لن تحجب الدماء ولا شهوة القتل المتزايدة مسيرة الحياة ويظل الانسان يتشبث بأسباب وجوده.

قالت أم شهله ـ أمانه .... أبو أحمد أمانه تسلم على فاتن وتقبل لي أحمد وناديه

ـ انشاء الله

لم يستطع جمال أن ياتيه بتصريح المرور ... كان صديقه مسافرا ... قرر خالد أن يذهب عن طريق الكوت فالمد ينة لم تشهد بعد اية احداث .. كان المقاتلون في النجف قد اتخذوا قرارا تحريضيا ضد سكان الكوت اذ منعوا دفن الجنائز القادمة من المدينة

أصرت ام شهله ان تعطيه علبة بسكويت ... تساعد في الطريق ... كانت تقف خلف السياج المشترك وكأنها تنتظره ...موفق وبالسلامة ... أرجو أن ترجع هذه المرة وهم معك ... ما شاء الله " البرحية" هذه السنة حملها مضاعف اللهم زد وبارك ... لو كانت فاتن تسمعها لخافت على النخلة من الحسد ولقرأت " قل أعوذ برب الفلق" ... انه يدرك ان أم شهله تقصد لا تنسونا

. منذ الان تريد أن تحجز حصة ما من التمر اللذيذ

مجموعة من الاطفال يلعبون في الشارع لاحظ انهم لا يصدرون الضجيج المعهود ، كانوا يتقافزون وراء الكرة الصغيرة بشيء من الانسيابية والهدوء وكأنهم يستمتعون بدفء شمس آذار الحانية أو كأنهم يخشون أن يسمعهم أحد فيشي بهم الى الست المديرة التي قد تقطع اجازتهم وتامرهم بالعودة الى المدارس !!

كان يقفل الباب الحديد حينما سمع رجلا يحييه

ـ الاستاذ خالد على ما أعتقد

كان الرجل يرتدي دشداشة رمادية داكنة وسترة بنية ، شعره الاسود يخالطه شيب توزع على نحو متباين ، ففي المقدمة كانت خصلة بيضاء تتوسط جبهته ، كان لديه حاجبين كثين شديدي السواد وفي عينيه الشهلاءين شيء من التسامح .. بدا مترددا ومحرجا

ـ أهلا وسهلا ... هل هناك ما يمكن أن أفعله لك ؟

ـ أ رجو أن تساعدني ... اني أطمع بموافقتكم

ـ ولكن على ماذا الموافقة ؟

ـ عفوا أستاذ آلاء مريضة منذ ثلاثة أيام ولم تستطع الذهاب للدائرة ... نرجو أن تحتسب غيابها اجازة

ـ لا داع لذلك .... الدوام هذه الايام مقصور على رؤساء الاقسام فقط ... لماذا أتعبت نفسك بالحضور ..المواصلات صعبة !!

ـ شكرا ولكني جاركم ... نحن نسكن على الركن ... اول الشارع !

ـ نفس الشارع ! صدقني لا اعرف ذلك رغم أن آلاء معنا منذ أكثر من سنة !

ـ أكرر أسفي للإزعاج

ـ لا إزعاج ويؤسفني اني مغادر ولا أستطيع دعوتك .

ودعه الرجل وذهب ... جارهم وهو لا يعرف ذلك ! ماذا حل بالناس ليتباعدوا على هذا النحو ... كانوا يتعرفون على الساكن الجديد ويقدمون انفسهم ، ولثلاثة أيام يحرصون على تقديم الطعام لان العائلة كلها مشغولة بترتيب البيت وتهيئته ... أما اليوم فأن الحياة أخذتهم ... ماذا يعرف هو عن أقرب جار له "أبوشهله " غير الامور العامة ... هل يعرف شيئا عن سلمان الذي يسكن وامه في الدار المقابلة ...بضعة أمتار عنه ... يعرف أنه جندي ..هذا من ملابسه ... وسمع انه الان على أبواب القفز الى الطبقة الجديدة التي فرّخها الدخول للكويت ... لم يره الا مرات قليلة... قالت ناديه أنها لقنته درسا لن ينساه ... كان يترصد خروجها ليحاول أن يكلمها ... قال خالد لفاتن أن تكلم أمه ... قالت كلا ... أعرف المرأة ... ليست ممن ينفع معها الكلام .. كما أني لا أريد أن يكون في الحديث معها بداية للتعارف ... لم يلح أكثر... قال أحمد حسنا أكلمه أنا.... وكور قبضته ... قال خالد لا .. سأتصرف وربما يأتي دورك لاحقا !

كان سلمان يقف على السطح يلوح لمجموعة من الطيور تحوم مصفقة بأجنحتها ... طيور ملونة .. قالت أم شهله .. بطران ... أمنّ خالد على كلامها وغادر الشارع .

بضع أفراد على الرصيف يتلذذون بدفء الشمس ويتبادلون آخر الاشاعات وأحيانا يتطلعون نحو "بوستر " كبير لصبي بالغ السمنة على الباب الحديد لمحل حلويات مغلق ... يعلن الصبي عن الحلويات باعتبارها مفيدة وصحية .... النتيجة...هذه السمنة المفرطة .. الاعلان صناعة ... وكل المظاهر في الحياة اليوم صناعة أيضا ... كومونة باريس ... 1 آيار ... انتفاضة براغ ... ثورة بودابست ... أليست صناعة !! مستوى لم ينضج بعد من الصناعة ... هذا الاعلان وما يجري اليوم ألا يربط بينهما نفس المستوى البدائي !! شارع 14

رمضان شبه فارغ تلفه كآبة ووحشة ، بين الفينة والفينة تمرق سيارة مسرعة وكأنها تخشى التوقف .... قبل حي دراغ كانت بناية شاهقة تنتصب مطلة على الساحة بتحد مقيت ... امام البوابة الكبيرة المغلقة مجموعة من الحراس .. كانت وجوههم واجمة لا تعبر عن اية مشاعر يرين عليها صمت متحفز يغطي على الخوف الذي تكتمه عيونهم الذابلة ... كانوا يتبادلون المراكز بآلية منتظمة ... في الزقاق المجاور سيارة عسكرية عليها رشاش ثقيل وبضعة جنود يقضمون أرغفة خبز خالية ... ليس بالإمكان هذه المرة استئجار طائرات الميراج من الصديقة فرنسا ... لقد اختلفت اللعبة ... كانت برقية باول واضحة .. دعوا دبابات الحرس الجمهوري تمر ... لا يدري لماذا تزدحم الافكار برأسه على نحو مشوش ... ولكن ماهو المنتظم في هذا اللامعقول !!

بجانب معرض بغداد الدولي المهجور افترش الجنود الارض ... أيديهم على اسلحتهم لا أحد يدري ما سيحصل !! .. اعترضه شرطي ربما لم يجد أحدا يمارس سلطته عليه

. ـ هويتك

ـ نعم !...

ـ هويتك

لم يجبه ... واصل المسير ... صرخ الشرطي

ـ قف والا أطلقت عليك النار

لم يكن الشرطي يحمل سلاحا ... عبر الرصيف الى الجانب الآخر ودخل الكراج .

الفصل الخامس

ذرات الرمل المتطايرة من سطح " اللوري " تتسلل الى أجساد الركاب الواقفين يستند أحدهم على الآخر كلما أهتز" اللور ي " وهو يجتاز الحفر التي خلفتها الدبابات على الشارع الاسفلتي النازل الى الكوت .

كان نهارا ربيعيا جميلا ... على الجانب الايسر كانت مزارع الحنطة تمتد زاهية ، سيقانها الخضراء تتماوج تحت أشعة الشمس فيما راحت عصافير نزقة تطارد مئات الفرا شات الملونة التي تتدارى بالزهور البرية، على الجانب الايمن بساتين تفتحت عن طلع لايزال حليبا تحتضنه أشجار النخيل التي تعد برطب جني , الربيع لم يهجر العراق .

على سطح "اللوري" كان الركاب منكفئين على همومهم يبحثون خصوصياتهم بحذر كي لا تفصح سحناتهم عن شيء ، من يدري قد يستطيع احد ما الدخول الى ما يفكرون به ..."الاخرون" أخطبوط تمتد مسجاته بكل الاتجاهات ... السلامة في ألا تفكر ... لا تناقش نفسك حتى بالصمت الاخرس، لقد تعلموا ذلك بالتجربة .

تطلع في الوجوه عله يتعرف على شخص ما , على شيء مختبئ في عمق العيون ، على فكرة ما قد تطفو على النظرات الحزينة والمقهورة ... هل بإمكانهم أن يضحكوا ... حسنا .. أن يبكوا ... ربما هم مستعدون لذلك ولكن الوقت قد لا يكون مناسبا وبالتالي توجه لهم تهمة ما !! ربما تهمة الاساءة , تذكر قصة الالماني الذي ضحك بصوت عال يوم وفاة أم الزعيم فسجن لأنه لم يشارك الشعب بالمصاب الاليم !! يوم خروجه من السجن وقف على الجسر ... طويل اللحية رث الملابس يبكي ماضاع من عمره ... سجن أيضا لأنه لم يشارك الشعب بقرحته بعيد ميلاد الزعيم ... الفصول تتعاقب والدنيا تتغير الا الزعيم

قال السائق ـ الكوت ، هل من يرغب بالنزول ؟

توقفت السيارة عند مدخل الشارع المتفرع من الشارع الرئيس ... نزل معه اثنان .. كانت وجوههم تحمل طبقة من الاتربة وتحولت الاجفان الى خطوط سريالية ... لم يتكلم احد منهم ... شعر بالخوف وهو لا يجد غير الصمت الثقيل يطبق على كل كيانه .

كانت تقف على مدخل الشارع النازل للمدينة دبابتان ، جلس فوقهما بضعة جنود , لم يكلموهم ، كانت نظراتهم لا مباليه .. أحس أنها جزعة تعبر عن نفاذ الصبر ... لم يشعر أنهم قد التفتوا الى الربيع الملقى أمامهم على امتداد الشارع

المدينة خالية تقريبا الا من بعض المارة الذين يقطعون الشارع الرئيس ... من الواضح أنهم يتجنبون المشي وسط الرصيف الواسع ، فهم يسلكون الممر المحاذي للحائط ... كان يرين على وجوههم صمت مترقب يعطي لنظراتهم هدوء الانتظار ... وسط الساحة التي حولتها مياه الامطار الى بركة, تنتصب جدارية كبيره ملونة تزدان بصورة ربما ثلاثة امثال الحجم الطبيعي .. كانت الملابس العسكرية تزدان بأوسمة ونياشين وتمنح الجدارية و الشارع والمارين والنائمين في بيوتهم ابتسامة عريضة ، شامتة تحاول أن تداري لؤما غريزيا مزروعا في القسمات .

على الكورنيش المحاذي لدجلة في الجهة المقابلة للجسر كانت مديرية المخابرات ... بناية كبيرة على مبعدة عدة أمتار منها لافتة كبيرة مثبة على عارضة خشبية "" "" ممنوع السير على هذا الجانب

أمام الباب الرئيس أربعة جنود مسلحين بالرشاشات , على السطح وضعت اسلاك شائكة تحوطا من قيام بعض المتسللين بالصعود الى السطح.

على الاركان فوق السطح صفت أكياس رمل كساتر لحماية الجنود الذين يقفون خلف رشاشات ثقيلة ... على الباب " بوستر " ملون ، كان يداعب طفلا ويقسر نفسه على ابتسامة حاول أن يجعلها ودودة ... كان الطفل متشنجا يحس بثقل وطأة الكف على رأسه ويبدو إن المصور وأمه يلوحان له ليبقى ثابتا وأن تظل الابتسامة البريئة على وجهه ... هذا عمو حتى وإن كانت يده ثقيلة و معروقة ... عليك أن تكون شجاعا تبتسم !!!.

ساحة وقوف السيارات على الجانب الاخر , الجسر دمّر مساراته صاروخ اطلقته إحدى الطائرات التي الحقته بقذيفة اخرى جعلته ينتكس معلنا أن لا مرور... من يحاول فعلى مسؤوليته !! الطائرات لم تستهدف مديرية المخابرات رغم أنها كانت تطلق النار من مدافعها الرشاشة و من جهاتها الاربع وكانت هدفا سهلا ! لماذا تظل الاسئلة حائرة ... متى سيأتي الجواب ؟

كان دجلة لا يحييه أحد ... غاضبا كئيبا ولكنه صامت .. الموجات الصغيرة تعبّر عن رفض مكتوم , حمل الجثث مكرها , وزعها على البدعة و الكحلاء والمشرح , واخيرا خص شط العرب بالحصة الكبرى , لم يكن يرغب بهذه الحمولات ولكنه كان مقهورا ، مشى متثاقلا , كان هو أيضا يطوي جانحيه على همومه , يخشى أن يحملوه الى أرض اخرى كما حملوا نخيل(البرحي)من بساتين البصرة , يخشى أن يصبح عقيما بعد ذلك كما هو نخيل البصرة في مواقع الاعتقال

كانت ساحة وقوف السيارات خالية من أية سيارة . مجموعات كبيرة من الراغبين بالسفر ينتظرون ، كانوا واجمين ، بعض الرجال يدخنون بحرقة وكأنهم يعوضون الالم والاحساس بالعجز , بعضهم الاخر كان يدخن لقتل الوقت ومداراة البرد

ـ متى غادرت آخر سيارة ؟

سأل خالد رجلا كان يقف مراوحا , امرأته ترضع طفلا ويغفو الاخر بحجرها

ـ وهل غادرت أول سيارة

كان الجواب مراوغا ولكنه ينضح بالسخرية المرة لم يكن خالد هو ا لمعني بها، لقد فهم ذلك و قدر أن الرجل متعب أنهكه الانتظار الطويل والبرد ولجاجة الاطفال .

تابع الرجل ـ قضينا اكثر من عشر ساعات بالانتظار ... لا أحد يدري متى يلوح الفرج ... اننا ندفع جزاء ما فعلناه ... علينا ان نتوقع الأسوأ

لم يعلق بشيء أحس أن هذا الاستسلام هو الذي سيأتي بالأسوأ , لماذا تعتمد ثقافتنا على عقدة الذنب الموروثة ... ترك الرجل وسار الى الجانب الاخر , كانت مجموعة من الشباب تصغي الى مذياع يحمله أحدهم ... كان المذيع يقدم تحليلا سياسيا معطيا صوته اقصى ما يملكه من التفخيم بنطق العبارات دون أن يهتم بما قد يسببه ذلك من أذى لحباله الصوتية , وهكذا أيها الاخوة المستمعون سنظل " نلعب " دورا رئيسا على المستوى الاقليمي والعربي والدولي .

لاحت على وجهه ابتسامة غارقة بالمرارة , نعم " ستلعبون " انه اللعب العبثي , لعب المأساة التي لا تبدو نهايتها قريبة ... انكم لا تؤدون عملا ولكن تلعبون !!

عاد ثانية يتجول في الساحة يتطلع في الوجوه المتعبة التي أمضها الانتظار والترقب ... صرخ طفل أنه جائع ... حاولت الام اسكاته بكسرة خبز ... قال

رجل يشتم امراته ... وأخيرا ماذا سأفعل!! أرتفع صوت المذياع بأغنية راقصة , بدى الايقاع السريع نشازا, قال شاب لزميله ليس وقته، أنصت .... الحركة غير عادية ، ماذا يحصل ؟

على الجانب الاخر بدأ يسمع بوضوح صوت اطلاقات متفرقة ... شاهد الجنود على بوابة مديرية المخابرات يدخلون بسرعة ... انصفق الباب الحديد وراءهم على نحو صاخب سمع في الكراج ، كانوا عجلين ,استفز هذا المتجمعين في الساحة ، اشرأب بعضهم يستطلع وتحرك البعض نحو الجسر .

بامتداد الشارع المتعامد مع الجسر بدأ يشاهد حشدا من الناس ... كتلة بشرية متراصة تتقدم وهي تكبّر .

أطلق الجنود من على السطح زخات من الرشاشات الثقيلة ... تحولت الزمجرة المبهمة الى أصوات مختلطة غاضبة وهي تقترب .. عبر الجسر ... أيقن أنه لن تأت سيارة بمثل هذا الوضع وانه يتحرق لمشاهدة ميلاد انتصار الناس ولو لمرة واحدة !! كانت نسوة يحملن اطفالهن فزعات يركضن باتجاه الجسر للهروب الى الجهة الاخرى ... يتقدمهن صبيان حفاة يصرخون ... لقد احتلوا الكوت ... زغردت امرأة ... قالت عجوز وهي تستند الى الجزء المتبقي من سياج الجسر تنظر نحو الماء وهي تدخن

- وبعدين

اشتد اطلاق النار ... ظهرت مجموعة صغيرة من الشباب المسلحين ... كانت أسلحتهم متباينة .. بعضهم يحمل العصي وبعضهم الحراب وقلة تحمل بنادق التحق بهم بضعة شباب يحملون رشاشات كلاشنكوف , كان واضحا انهم الاقرب الى التنظيم ... تعالى هتاف حاد من مكبر محمول ... الله أكبر ..رددت المجموعات كلها الهتاف .. زغردت النسوة اللواتي كنّ خلفهم..... زغاريد النسوة تدفع بحماس الشباب الى أعلى مستوياته... شاهد محاولات فاشلة لتسلق سور المديرية .. سقطت بضعة أجساد ثقبها الرصاص واندفع الدم على الاسفلت حارا لزجا ... أمكن تسلق السور الشرقي ... هبط الجنود قفزا تاركين الرشاشات .. تعالى دخان من قلب البناية ... فتح الباب الرئيسي وبدأت أعلام ملونة تتقدم من كل صوب ... أطلق المقاتلون الذين استولوا على البناية زخات من الرصاص الى أعلى معبرين عن الفرح ... قال رجل وصل من الجانب الاخر .... لقد أخرجوا السجناء بعضهم كان مختفيا منذ سنوات .

تقدمت جموع مسلحة غاضبة تعبر الجسر ... انه مشهد يصعب نسيانه ... توق مقهور للحرية رفع عنه الغطاء ... والبناء الذي شيد على الرعب والخوف ينهار بسرعة ، بدأت سيارات عسكرية تمر خلف الكراج محملة بالجنود وصناديق الذخيرة .

لم يعبأ الجنود بالحشود المتقدمة وكأنهم يشاهدون منظرا لا علاقة لهم به، أخلي المعسكر على عجل وبهذا تم تجنب مذابح متوقعة ... لوح المهاجمون للجنود المغادرين ولكن أحدا منهم لم يرد .... سقطت مدينة الكوت وسقط المعسكر .

المساء يزحف باردا ينشر القلق والغموض ... لم تحل الفوضى بالمدينة فقد تم تنظيم كل شيء بسرعة ، ساعد على ذلك أن العديد من الناس لزموا البيوت منتظرين ، في الشوارع مجموعات مسلحة تقوم بالحراسة .... فكر أن هذا لن يستمر وان عليه أن يغادر بسرعة ... سار باتجاه الشارع العام تاركا الكوت خلفه .... انتهت الضجة والصخب .... شعر انه منهك ... كان الهواء البارد يلفح وجهه باعثا في جسده الرجفة ... بضعة بيوت متناثرة تنام خلفها مدينة صغيرة ... كان كل شيئ هادئا ... في المقدمة مقهى صغير تركه زبائنه مبكرين ... في الداخل شاهد رجلا يقوم بكنس الارضية

ـ السلام عليكم

رفع الرجل رأسه متفحصا

ـ وعليكم السلام ... لقد اقفلنا

كان يريد ان يقطع عليه طلب الجلوس

ـ ولكني لا أقوى على السير ولا توجد سيارات ...انا بحاجة الى شيء من الطعام ... سأدفع ما تطلبه .

ـ اجلس ... هل أنت من بغداد ؟

ـ نعم

ـ لهجتك مختلفة عن هذه النواحي ... حسنا وما الذي جاء بك في مثل هذه الظروف ؟

كان من الطبيعي أن يوجه له مثل هذه الأسئلة اضافة الى أنه يدرك أن من عادة الفلاحين الفضول الذي لا يجدون فيه أمرا غير مألوف

ـ كنت في طريقي الى النجف ... تركت سيارتي قبل الاحداث لإصلاحها فهي بحاجة الى سمكرة ... "عمرة " كبيرة

لم يشأ ان يتحدث عن عائلته لان من شأن ذلك أن يدخله" باستجواب" لانهاية له

ـ انقلاب أم اصطدام ؟

ـ الاثنين ... انقلاب أدى الى اصطدامها

ـ وماذا ستفعل الان ؟

ـ لا أدري ، ولكن الذي أدريه الان أني بحاجة الى شيء من الطعام والشاي ... ألا يوجد مطعم ؟

. ـ الان ! لا .. ولكن بسيطة

نهض الرجل الى الموقد فأشعل ورقة ليضعها تحت بضع خشبات احترق نصفها وملأ ابريقا نحاسيا بالماء من الزير الفخاري الذي بدأ ت طحالب خضراء تملأ سطحه الخارجي

سيكون الشاي جاهزا خلال دقائق .... المشكلة في الطعام .... لا أستطيع المغادرة . ... راقب الماء وخذ راحتك لأني أود أن القي نظرة على الطريق

خرج الرجل متجها الى الشارع العام يستطلع وليتأكد أن الجيش لن يعود الليلة الى الكوت ... كان قد تجاوز الاربعين ولكن هيأته العامة توحي بأنه قد قضى حياة مليئة بالمتاعب أثقلت قسمات وجهه بغضون ثقيلة وحولت عينيه الى بركتين صغيرتين تنزان ماء .... لم تتحمل كتفاه ما تعرض له فقوست ظهره بانحناءة واضحة .. كانت دشداشته ذات اللون البني في يوم ما ، تحول لونها الى لون باهت مختلط ... ربما لم يك يشعر بالبرد فهو لا يلبس سترة أو عباءة ...كان في قدميه صندلا بلاستيكيا لايقيهما من الماء .

أعد خالد الشاي ووجد بضع كسرات من الخبز اليابس ... جلس ممددا ساقيه على "التخت " الخشبي الذي راح يموء تحته ... أحس بتكسر الخبز اليابس تحت أسنانه ... قليل من الشاي وتعود للخبز طراوته .....

كان طعم الخبز لذيذا لم يتذوقه من قبل ... ناديه المتفحصة هل استكانت لقدرها ؟ فاتن لن تسمح لأحمد بالخروج ... الوقوف عند الباب خطر .... ولكن يا عزيزتي وسعي قليلا من حدود حريته ... ان عليه أن يحس بالحرية في مسؤوليته عن

تصرفاته .... المراقبة في المدارس ... في الدوائر ... في المقاهي ... لماذا نضيف نحن أيضا مراقبة جديدة ! ثم لماذا لا تستمتعي بوقتك؟... ألا تتعبك مثل هذه المتابعة ... ولكن أريده أن يصبح رجلا .... أرجو ألا تعقّد الامور !... ستظل متابعاتنا مطلوبة حتى لو كنا في معتقل !! .. السلوك تربية ... ثم تضحك لتدفعه الى تغيير الموضوع .

بدأت دوريات من الشباب المسلح تشاهد ماشية تراقب الطرقات ..كان بعضهم يلقي عليه نظرة سريعة مستفسرة

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم

يبدو أن جاسم غير موجود ؟

ـ نعم لقد خرج وسيعود قريبا.

لم يستغربوا وجوده ولم يساله أحد عن " هويته " كانوا على العموم في العشرينات من العمر أضفى المساء الداكن على وجوههم السمراء صلابة وشيئا من الخشونة ... ربما لانهم يدركون ما هم مقبلون عليه من المخاطر، على رؤوسهم كوفيات بيضاء بالأسود مما يستعمل عادة في جنوب العراق،

جاء جاسم متعبا لقد خاض في برك طينية موحلة فالصندل البلاستيك كان مغطى بالطين , ارتمى على التخت واغمض عينيه اللتين كانتا تنزان ماء حاول أن يخفف عنه

ـ كان الله في عونك ... يبدو أنك مشيت كثيرا

ـ أشكرك ... نعم .. لقد ذهبت لتفقد دار أخي ... زوجته والاولاد وحدهم

ـ هل هو مع المقاتلين ؟

ـ كلا ... سحب نفسا عميقا ... ماذا يمكن أن أقول ... هذا أخي الكبير ... كان موظفا في الكويت ... التحق بالفلسطينيين في الاردن ثم انقطعت اخباره ... عاد الى النعمانية ليتزوج ويستقر ... افتتح دكانا للمواد الغذائية... قبل الدخول للكويت اخذوه ولم نسمع عنه شيئا .

ـ ولكن بأية تهمه؟

ـ الاشتراك بحركات مسلحة

صمت لحظة ثم تابع

ماذا يمكن أن أحكي .... أنا الان في الحادية و الاربعين ... أعرف انك تراهن - أني قد تجاوزت الستين ! معك الحق .

رفع رأسه وتطلع نحو خالد ... لم يستطع أن يخمن ما اذا كان يبكي أم أن عينيه تنزان ... كان الدمع قد تجاوز المحجرين ليتدحرج ببطئ نحو الغضون الممتدة كأخاديد صغيرة

ـ ما قضى علي ليس اختفاء ... لا ... قتل ابني الكبير حميد ... كان في الصف السادس ثانوي .. يقول عنه استاذ الرياضيات .. انه نابغة ... جاسم تذكر هذا ... حميد سيكون له شأن كبير

ـ ولكن كيف قتل ... اعني عملية ثأر

ـ ماذا ؟ ثأر ... لا نحن هنا كلنا اولاد عم.... المشاكل لاتحل على هذا النحو .... كان حميد شابا لطيفا تصور أنه لم يزعجنا .. لا أنا ولا امه ... كان عشقه يتركز في أمرين ... القرآن الذي كان يحفظ معظمه ويتلوه بصوت بالغ العذوبة والحلاوة... والشعر ... كان يحدثني أنه يهوى ثلاثة واحد أبن قيس , لقد نسيت اسمه

ـ امرؤ القيس

ـ فعلا ... والثاني الرضي

.. ـ الشريف

ـ نعم

ـ اما الثالث فهو من النجف .... يقول ان أسمه الجواهري .... كان يحفظ لهم كثيرا .

وجد خالد أن الرجل يسترسل بالحديث بلذة ... يجد في ذكرياته عن أبنه شيئا من العزاء عن فقده

ـ ولكن من الذي قتله ما دام بهذه المواصفات ؟؟

-" هم "... وهل يجرؤ أحد على القتل غيرهم ؟

- لماذا ؟

- استدعوه الى المقر .. قالوا له أنت من حزب الدعوة ... قال اية دعوه .. أنا لم ادعو أحدا ولا اعرف ان كنت أصلا مدعو ... قالوا .. أنت تحاول أن تتذاكى ..... علينا ... أنت تعرف ما نعنيه ... اعترف أبن ألـ

لم يتحمل الإهانة ... ضرب المسؤول الذي شتمه ... قيدوه ... أثناء الضرب مات ... قتلوا حميدا يا أخي ...من يومها وعيني لا تنفكان تدمعان ... كان رجلا ... كيف يشتمه بأمه

- ولكن هل كان فعلا يعمل مع الحزب ؟

- لا ادري فأنا لا اعرف شيئا عن الاحزاب ... الذي أدريه انهم قتلة ... كان . يذهب الى الحسينية في النعمانية ... الجميع يذهبون الى هناك

- هل لديك أولاد غيره ؟

. - نعم أربعة ... ثلاث صبيان وبنت

. ـ ادعو الله أن يعوضوك عنه

- ان شاء الله ... يبدو اني اتعبتك بمشاكلي ... آسف جدا ..ٍأذهب الى البيت ... يمكنك النوم في المقهى حتى الصباح ولكن اسمح لي ... سأغلق الباب من الخارج

- لابأس وأشكرك

. - في الحقيقة أنا أخاف عليك ، لا يوجد في المقهى ما يستحق السرقة

صمت كل شيء إلا صرير الجنادب التي راحت تطلق أزيزا مستمرا زاد من معاناته كما بدأت مئات الضفادع على شاطئ الترعة الغربية نداءات لجوجة .... رائحة بقايا الشاي في الصفيحة قرب الموقد كانت عطنة نفاذة ... لماذا لم يخرجها .

في غرفة التوقيف الضيقة كان هناك أكثر من عشرين شخصا وكانت صفيحة مماثلة تبعث رائحة عطنة , أرضية الغرفة الكونكريتية تبعث موجات من البرد

حادة تصك العظام ... كانوا ممددين متلاصقين يصعب أن ينقلب أحد على جنبه الآخر دون أن يزيح زميله بضع سنتمترات .

لم يسمح لهم بالاستحمام منذ اسبوع ... تنزت رائحة العرق في جو الغرفة .. التعب والانتظار والقلق المضني لم تترك لاحد أن يشكو .... لكنه الان يستطيع أن ينقلب على جنبه ... التخت الخشبي لا يشاركه فيه أحد.

ـ خالد عبد الدايم

كان صوت آمر حاد

ـ نعم

ـ البس بسرعة وتعال

لم ينبس أحد بكلمة .. يعرفون أن جلسة " الطرب " ستبدأ ... هكذا يسمون جلسات التحقيق ... جلسة الطرب قد تمتد لساعات ... أنت وحظك ... أنت وقدرتك على التحمل أو الاعتراف بما أنت أو بما يملوه عليك.

يعود من جلسة الطرب " بكل الاحوال" يحمل وجها آخر ... كرة مضرب كانت صفراء ... يبدأ" الطرب" عادة على الوجه ثم يتقاذفه محققان ... يطرح أرضا ... العصى المطاطية مرنة تلتصق بالجلد ثم تنط الى أعلى ... راقبها عدة مرات.

- ابن ألـ ... لماذا لا تعترف .. لدينا خارطة بالهيكل التنظيمي .. نحن لا نريد اعترافك لإقرار الهيكل ولكن حتى لا تدعي البطولة .

لكمة قوية وقاسية على أنفه ويجري شلال من الدم على فمه .

- حسنا أنت لا تريد الكلام ! سنبدأ الخطة "ج" .. انزع.

لم تك لديه القدرة لخلع ملابسه ... لكمة أخري وركلة بين فخذيه وتم تجريده، علق من معصميه .

- الان سنبدأ واذا انتهينا دون أن تتكلم سنتحول الى الخطة "أ" ...أنت حر في الاختيار فالقرار بيدك

ولكن لماذا يعملون بالمقلوب ج... ثم.. أ.... ربما في هذا الترتيب حكمة لا يفهمها .

. يا ابن الـ.. ستجلس على" الخازوق " -

ضحك المحقق الاقرع ... كان شعره قد تساقط بفعل مرض جلدي من وسط رأسه وبدت فروة الرأس حمراء منكمشة , كان قصيرا ممتلئا يتمتع بصحة جيدة .. يداه قصيرتان ولكنهما متينتان ,وجهه أملس لا يعطي انطباعا بالرجولة , حينما يبدأ بالضرب فأن ما يغيظه هو أن تتطلع في وجهه ... كان يستشعر الاحتقار فيندفع الى الانتقام بقساوة , حتى حينما " يوفق " في دفع بعضهم الى الاعتراف "و رغم مشاعر التشفي التي تشيع على قسماته " فأنه يلجأ الى الشتائم المقذعة ... ...أكتب .. ابن ألـ..... أخ ألـ

توقف كل شيء فجأة وسمعت أصوات انفجارات وهدير دبابات , هرع المحققان خارجا , سقطت قذيفة على الباب الرئيسي , جاء مفوض بالملابس الرسمية , البس بسرعة , تم اخلاء المديرية ... لقد بدأ هجوم الجيش على قوات الحرس القومي!!.. كان ضحى أحد ايام تشرين ... لقد أعطاه تشرين الحرية صدفة ... لم يعمل من أجلها ... جاءته هبة من السماء فماذا سيعطيه آذار !

سمع صوت باب المقهى يفتح ... دخل صبي يحمل فانوسا قال:

ـ عمي ، أبي ارسل لك هذا المذياع وشوية حلاوة جزر وخبز

ـ شكرا .... ما أسمك ؟

ـ خلف

في المدرسة ؟ -

ـ نعم بالصف الخامس الابتدائي ... تعرف عمي ، الانكليزي صعب ..... تعرف أنت انكليزي ؟

ـ قليلا

تنهد الصبي ووضع صحن الحلاوة ورغيف الخبز على الموقد المنكفئ وأعطاه الجهاز

تنام القرى مبكرا حينما يصمت آخر ديك عن الصياح وعادة ما يكون ذلك مع اختفاء الشمس كلية دون مراعاة فروق التوقيت ... كما أنها تصحوا على صياح أول ديك ...كان غبش الفجر رماديا ...والارض الطينية برك متصلة بعد أمطار

الليلة الفائتة اذ أنها ليست قابلة لتسريب المياه ,غيوم ثقيلة منخفضة ذات لون داكن تبعث في النفس كآبة وميلا للكسل , لاتزال تتحرك ببطء نحو الشمال .

فتح الباب ودخل جاسم بدشداشته الواسعة التي فقدت الانتساب لاي من الالوان المعروفة وكوفيته المنقطة بالأسود ولكنه اليوم يرتدي أيضا سترة طويلة زرقاء بأزرار نحاسية لامعة

ـ السلام عيكم

ـ وعليكم السلام

ـ هل استطعت النوم ؟

ـ يعني

انشغل الرجل بإشعال الموقد .... وضع الأبريق النحاسي الذي سرعان ما غلّفه الدخان الكثيف المنبعث من الموقد بطبقة سوداء سميكة ..كان يتحرك بخفة ويدندن بصوت غير مسموع أغنية ريفية .. التفت اليه

ـ سيغلي الماء بعد أقل من خمس دقائق ... لقد جئتك بجبن وخبز وتمر ,هل تفضل تناول الطعام الان أ م تنتظر الشاي؟

ـ أفضل انتظار الشاي ... جزاك الله خيرا لقد أتعبتك معي .. هل استطيع الصلاة .. أعني هل المكان طاهر ؟

ـ السجادة أفضل

! ناوله سجادة صغيرة بحالة جيده ... ربما لأنها لا تستخدم كثيرا

ـ تقبل الله

ـ منّا ومنكم

قال جاسم :ـ ربما لم تنتبه اثناء الفجر، لأصوات الدبابات وسيارا ت الجنود وهي تتوجه لتطويق الكوت ؟

ـ كلا .. في الحقيقة كنت متعبا لأقصى حد ... لم أسمع شيئا

ـ الامريكان فجروا مخازن العتاد في المعسكر , هل تعتقد أنهم يخشون من وقوعه بيد المقاتلين ؟

ـ ربما

ـ هل ستذهب اليوم

ـ نعم .... وأنت ماذا ستفعل؟

ـ سأظل في المقهى .. الوضع خطير جدا , يعني ماذا سيفرق ، واحد زائد .. واحد ناقص !

لم يعلق فالأمور تسير دائما على هذا النحو ... دس في يد جاسم بعض النقود وغادر ، هل يعود الى الكوت ؟ القتال سيبدأ وقد تنقطع به السبل ولن يستطيع أن يجد سيارة الى الكوفة أو النجف , هل يعود الى بغداد ؟.

على الشارع العام وقف بانتظار سيارة عابرة , كان المطر قد بدأ رذاذا تدفعه ريح جنوبية رطبه رفعت من درجة الحرارة ... بدت سيقان الحنطة الخضراء منحنية وكأنها تنتظر خبرا مفجعا قد يأتي بأية لحظة .

توقفت سيارة " بيك أب " قال السائق .. الى بغداد ثلاثون دينارا , لابأس , دفع المبلغ وصعد الى جنب السائق , كان المذياع يقدم أغنية (يا نبعة الريحان)

الفصل السادس

ـ ماما أرجو أن تتفهمي الموقف جيدا ... ليس أسوأ من الاستعجال وعلي أن أرتب كل شيء بهدوء ودونما ضجة , سأشتري قطعة أرض معروضة للبيع في منطقة الكفاءات ... القطعة لا يمكن تعويضها فهي في الحقيقة قطعتين بمساحة ستمئة متر مربع لكل منهما ... يمكن أن أبني عليها فيلا وحديقة واسعة ومسبح ... ثم الأهم أن نخرج من هذه المنطقة ... الناس هنا يعرفون جيدا من نحن وما نملك وبمجرد أن تبدو علينا آثار النعمة فأن القيل والقال لن ينتهي ... لهذا أعيد عليك للمرة الاخيرة ألا تلبسي الذهب ولا تتحدثي كمن ورث مليون !... فهمت ... حينما ننتقل سنبدأ من جديد وتستطيعين أن تتصرفي كما يعجبك

ـ ولكن

ـ بلا لكن هذه... لازال لدي نقطة أخرى

ـ الله يهديك يا إبني ... أعرف أنك قد تغيرت ... أنت الان رجل ... لم تعد سلمان أيام زمان

ـ الزواج

ـ الزواج !! من قال أني أفكر بالزواج

ضحك سلمان ... منذ عشر سنوات توفي والده ... كان هو في الخامسة عشر وقررت هي ان تتفرغ له ولكن شيئا ما في أعماق المرأة كشجرة الزيتون لا يعترف بالسنين ..

ـ زواجي أنا ...

ـ زواجك أنت ... بالطبع ... وتملأ لنا البيت بالأولاد .. ولكن هل ...

ـ نعم فكرت بالفتاة التي أريدها

كان يعرف بماذا تفكر أمه ، يقرأ أفكارها بسهوله وكان كثيرا ما يرتب لها مقالب وهو يحادثها خصوصا حينما يضطر للبقاء في البيت ليلا .... يجد متعة في أن يشغلها عن متابعة المسلسلات العربية في التلفزيون فيدخلها في متاهات لا تقوى

على الاستمرار في التركيز معها ... لا أعرف ماذا حصل ... كيف تصالحا ... أتركني برحمة أبيك. .

ـ ولكن لماذا لا تخطب بنت خالتك هند... انها جميلة وربة بيت ممتازة وستكون أحسن معين لي في البيت ... ثم أن بنات خالتك لا يلدن إلا الأولاد ... أنت وحيد وأريد ألا يتكرر ذلك مع ذريتك.

ـ بنت خالتي !!.. كلا .. لا أعتقد انها مناسبة .. أن لدي طموحات أخرى وأنا بحاجة الى زوجة بمواصفات معينة يمكن أن تساعدني

تنهدت أمه وقالت ـ مواصفات ! وبنت خالتك غير مناسبة .... لا أفهم ذلك ... ماذا تعني؟

ـ أعتقد أن الموضوع طويل ... أريدك أن تذهبي اليوم لزيارة بيت أبي شهله ... زيارة جس نبض،

فأنا أفكر بأخت شهله الصغيرة ..." رجاء" ... أتصور أنها الزوجة الملائمة ... أنا أعتمد عليك. .

لم تهضم الفكرة .. كانت تعتقد أن بنتي أبو شهلة لديهن أحلام أبعد من شباب الشارع رقم 10 وأن سلوكهما المتحرر لا يتناسب مع دور الزوجة المستقرة التي تفكر بإنشاء بيت وأولاد

ـ رجاء !! بنت أبو شهلة .. ما هذا ؟ اذا كان ولابد من استبعاد بنت خالتك فلماذا لا تفكر بناديه ... عائلة محترمة ...ناديه تختلف عنهما ... صحيح أن امها " شايفه حالها " ولكنها تكرس كل وقتها وتفكيرها لزوجها وولديها ... البنت على أمها كما يقال

ـ ناديه ! لا ... أنا في أول الطريق ... ناديه في آخر الطريق .. بعيدة ولا يمكنني اللحاق بها ... . "رجاء " تسبقني خطوات .. مقدور عليها ... هل فهمت ؟

ـ لا والله لم أفهم ولكني أعرفك ولن يجدي الكلام معك ما تريده تجد ألف طريقة للوصول اليه ... سأستعين بالله وأذهب مساء اليهم ... وفقك الله ... أنا أريد سعادتك وزواجك هو أحد احلامي. .

ابتسم وقبل رأسها وقال معابثا ـ أم سلمان ..." رجاء".. لا تنسي

ـ بالتأكيد" رجاء "... وانشاء الله ستذبح لك كل الطيور أول يوم زواجها

ـ أطال الله لي بعمرك ... ستكون الطيور أول وجبة افطار .. ولكن ستعملينها أنت محشي بالرز واللوز ... والان علي أن أذهب الى فتحي .. لا اريد أن أتأخر، فموضوع الارض مهم جدا ويحتاج الى ذهن صاف ... ماما موضوع " رجاء " أمانة بين يديك.

اخرج سيارته من الكراج ... تطلع الى بيت أبي شهله وتمتم ... الله يجعلها من نصيبي ... مع رجاء استطيع أن أتابع طريقي واكمال الشكل الذي يجب أن أدخل به الى الحياة الجديدة .. انها الخطوة الصحيحة في الاتجاه الصحيح ... القدر يرتب مصائرنا على نحو لا يمكن تصوره ... كان في الخامسة حينما انتقلوا من بيجي الى بغداد ... يتذكر البيت الصغير المعتم والرطب على تلة تشرف على الطريق العام في" الجعيفر" لقد عانى كثيرا حينها اذ كانت أمه لا تتركه يغادر البيت خوفا من السيارات كما كانت لا تدعه يلعب مع اولاد الجعيفر ولهذا تولدت لديه عدوانية وانطواء ... قال أبوه الذي وفق بالعمل سائقا عند موظف كبير ... سينتهي كل هذا العناء ... لقد اشتريت قطعة أرض خارج بغداد ... أخذت سلفة مائة وخمسين دينارا من الدائرة لدفع الثمن ... خلال اسبوع سأقترض من العقاري ... لن أحتاج البنائين اذ سأقوم أنا بالبناء سأستأجر عمالا فقط ... حينما رأت أمه قطعة الارض لطمت على خدها ... هل أنت بكامل قواك العقلية ... كيف تريدني أن أسكن هنا ... ليس في الجوار أي ساكن ... كيف ستتركنا طوال النهار أنا وهذا الطفل ... ثم كيف سيذهب الى المدرسة ..قال أبوه انتظري ... سترين ان هذه الارض الخالية ستساوي الالاف .. رحمه الله فقد صدق .. مع رجاء ستساوي الملايين !.. ولكنه لم يستطع أن يتوائم مع المدرسة ... كان يذهب الى اللعب في الساحات أو يتسكع في منطقة سباق الخيل بدلا من الذهاب الى المدرسة ... على ولي أمر التلميذ سلمان طلاع الحرشان أن يحضر الى ادارة هذه المدرسة ... بكت أمه كثيرا ... أصبح من الرواد المقيمين في المقهى الجديد عند محطة تعبئة الوقود وهناك تعرف على فتحي ... كان يتحايل عليه ليدفع عنه بعض المصاريف الصغيرة ويقضي معظم النهار يلعب الدومينو أو الورق ... أحيانا يؤدي أعمالا متباينة ... تمديد أسلاك كهربائية ... بناء سياج مهدم ... اصلاح اعطال بسيطة في سيارة ... لم يكن يستقر على عمل ... فتحي ... سأدفع لك يوما ما كل شيء ، كل ديونك ... أقسم أني سأدفعها مضاعفة ... يضحك فتحي ساخرا ... اهدأ ...أنت لن تدفع شيئا ويبدو أني سأعيلك طوال العمر

بعد انتهاء خدمته العسكرية قال لفتحي انه الان فقط يشعر بالحياة ثانية ... ولكنه لم يهنأ كثيرا .. قال لامه لعن الله هذا الاحتياط من أين خرجوا لنا بهذه المودة كلما ضاق بهم الامر استدعوا الاحتياط ... الخدمة الالزامية وانتهينا منها ... بكت أمه أما فتحي فقد قال له .. أخيرا سأعرف كم يلزمني غدا ولن أفاجأ بمصاريف غير محسوبة ... العسكرية ستتكفل بمصاريفك الطارئة !.. اصدقاؤك سيرتاحون من سخريتك الدائمة وتعليقاتك الجارحة ... لكن فتحي أبدى تأثرا واضحا يوم سفره ...

بعد ثلاثة أيام ترك وحدته وعاد الى بغداد ... ظل يتسكع ... لقد تعبت من الواجبات الصباحية ...

التمارين السخيفة لا جدوى منها لافي الحرب ولا في السلم ... انها تطويع لإرادته ليس إلا ، وأحيانا امتهانا لكرامته ... حين عاد قال آمر الحضيرة ... سلمان ...الآمر يطلبك ... كان العقيد عبد الفتاح معروفا بشدته وباستعماله الشتائم المقذعة ... صعد الى رتبة عقيد خلال ثلاث سنوات .. كان طالبا في الصف الثالث المتوسط حين قال له خاله ..لقد كلمت " عمنا " وقال انه يعرفك ... ستذهب الى دورة خاصة لتصبح ملازما ... بعد ستة أشهر كان يحمل نجمة ذهبية شديدة اللمعان ... عاد الى القرية يرتدي الملابس العسكرية وظل يرتديها وهو يقوم بإعادة الابقار الى الحضيرة ... حين دخل عليه سلمان بادره بشتيمة قاسية .. أنت جندي ... هل تفهم ذلك .. أعتقد انك بحاجة الى تأديب وأن يسحق رأسك...

أعاد الشتيمة ثانية .... قال سلمان بهدوء وبشيء من الاستكانة ... سيدي أعرف أني جندي ولكن والدتي مرضت فجأة ولم أجد الفرصة للتقدم بطلب الاجازة وليس لديها غيري في بغداد .. الاهل كلهم في بيجي ... أخرجتها من المستشفى وأمنت وصولها الى بيت خالي هناك

! ـ انت من بيجي

ـ نعم سيدي

ـ هل تعرف فرحان الحميد

ـ نعم سيدي ابن خالي متزوج احدى بناته

ـ آه

نظر اليه بشيئ من المودة

ـ حسنا لقد فهمت

ـ سيدي ، هل الحاج فرحان قريبكم

ـ خالي

بعدها سحبه عقيد عبد الفتاح للعمل كمرافق وسائق ... أصبح في دائرة الاهتمام ... اجازة ... نعم ... عشرة دنانير ... لديك مخالفة ... حسنا ... قطعة قماش ... أبو حسين أنت خياط .. حينما تتمتع غدا بالاستراحة أرجو أن تخيط هذه القطعة لي ... سأله العقيد .. هل تعرف بناء .. لماذا سيدي ... أرغب ببناء بيت في المزرعة ... نعم سيدي ... لاتهتم بالطابوق والاسمنت .. سأدبر كل شيئ ... ثلاثة شهور وكان العقيد وأصدقائه يقضون أول ليلة في البيت ... كانت ليلة تأريخية كما قال لسلمان ... لقد أبدعت رازقية ... تملك شعرا مذهلا وتغني بصوت دافئ ... ظلت ترقص وتغني طوال الليل ... أنت جني يا سلمان ... لا أعرف كيف سأستغني عنك ! .. صدقني اذا انتهت مدة خدمتك سأجد طريقة للاحتفاظ بك ... مكتوب عليك أن تظل معي

ـ عقيد عبد الفتاح ... عليك أن تكون الليلة في البصرة ... ستبلغ بالمستجدات

فور استلامه الامر اتصل بعائلته يودعها ... لا اعرف ... قد نتأخر ... لا سلمان .. سيكون معي ... استدعي أحد أخوتك

ـ سلمان افحص السيارة جيدا .. سنتوجه الى البصرة .. الامر جدي ... من الواضح ان هناك شيئا ما

في الساعة العاشرة ليلا كانت الوحدة في المزارع على الحدود ... عند الفجر دخلت الكويت وفي الحادية عشر صباحا اسندت الى الوحدة مهمه الامن الداخلي في العاصمة وشوهدت اللاند كروز الصفراء تجوب الشوارع المذهولة

ـ سيدي سوق الذهب ومحلات الصيرفة مفتوحة ... وغمز بعينه وتابع بلهجة توكيدية

ـ لا أحد في المحلات ... لقد هرب الجميع

ـ خذ معك ثلاثة من النشامى وسيارتين ... أنت تعرف الباقي

كان يعرف فعلا ما يفعل ... العقيد مسؤول العاصمة ....ومعه هوية خاصة بعدم التعرض وعلى صدره " باجا ".. في نقاط السيطرة على مشارف الشوارع وفي الطريق الى البصرة كان المكلفون بالحراسة يرفعون أيديهم بالتحية ... خلال الاشهر الاربع الاولى كان سلمان قد انتهى من مسالة ضمان مستقبله ... انه الان يستطيع أن يشتري نصف المنطقة ... مع التحول المالي تحول هو من شخص لاأبالي كسول الى انسان آخر .. قليل الكلام ،جدي النظرات ، دائم التفكير .. ماذا !لو عرفوا

!! كيف سيبرر ما لديه ... لابأس انه ليس الوحيد

ـ لماذا لاتريد أن ألبس هذا الكف ... انه جميل ويأخذ العقل .. كنت أراه وأتحسر واليوم معي ولا أستطيع أن أخرج به !! ـ اصبري يا أمي .. أيام فقط وستكونين أحلى أم في بغداد كلها ... نساء قريتنا سينفجرن من الغيظ حينما تزورين بيت خالي

ظل فتحي صديقه القريب ... اسمع فتحي أنت صديقي وأنا أحتاجك ولا أستطيع أن أنجز أعمالي بمفردي ... ستكون أنت ساعدي الايمن ... نستقر أولا .. سأزوجك ... كنت تحب سلوى ... اذهب واخطبها .. لا تفكر بالمهر ... مهما كانت التكاليف سأدفعها ... أنا أحتاجك ولدينا الكثير نعمله ... الحرب ستنتهي وسواء" بقوا "أم رحلوا فالأمر واحد .. وبكل الاحوال سيتم تسريح الاحتياط ونبدأ !! في تنفيذ ما أفكر به

ـ سلمان يبدو أن صاحب الارض طماع وهو يستغل تعجلنا على الشراء ... لقد بدأ يماطل ... ما رأيك أن نتركه بعض الوقت ... أبو سعد الدلال اتصل بي ليخبرني ان لديه قطعة أرض مساحتها سبعمائة متر مربع في شارع فلسطين وانه يستطيع ان يحصل لنا على سعر ملائم لآن صاحبها مستعجل وينوي مغادرة العراق

ـ لا .. أنا لا افارق الكرخ ... قلت أن صاحب الارض جبوري

ـ نعم

ـ من الشرقاط أم من تكريت

ـ لأ من هنا ولا من هناك ... من المسيب

ـ المسيب

ـ نعم وماذا في ذلك ؟

ـ لاشيء ... ولكن هانت ! اسمح لي الان ولكن لاتنسى أن تذهب اليه غدا بعد الساعة الثانية عشر صباحا.... سيوافق !!

لقد وافق فعلا ... كان خائفا ومرتبكا ... وقع العقد واستلم العربون وسلم الاوراق الرسمية ليقوم فتحي بمتابعة تحويل الملكية

قالت أمه ـ لقد ذهبت الى بيت أبي شهله ... أم شهله تقول أن رجاء لا ترغب بالزواج الان ... لديها مشاريع دراسة وقد يطول الامر ... لماذا لاتوا فقني على أبنة خالتك ؟

ـ مرة ثانية ... انسي بنت خالتي نهائيا ... اخبريني كيف كان استقبالهم ؟

ـ عادي .. قدموا الكعك والعصير وظلت الاحاديث على العموم ودية

ـ جيد، هذه بادرة مشجعة ... سأذهب أنا الان

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لا خطبها

ـ ماذا

ـ لا خطبها ... أنت لا تثقين بقدرات سلمان الحرشان !!

حين طرق الباب رد ابو شهله ـ من ؟

ـ أنا سلمان عمي أبو شهله

ـ أهلا سلمان !

لم يفتح الباب وقف وراءه وعلى وجهه استفسار مشوب بالضيق ولكن سلمان تجاهل ذلك ..كان يعرف انه بحاجة الى الكثير من الصبر

ـ في الحقيقة لدي حديث معك ... لن آخذ من وقتك أكثر من خمس دقائق

ـ تفضل

قالت شهله لرجاء ... جاءك العريس بنفسه

ـ تشرب شيئا

ـ لا عمي أبو شهله ... لا أريد شيئا ولا أريد أن أسبب تعبا لخالتي أم شهله ... في الحقيقة أنا أكن لك تقديرا خاصا ... انتم عائلة كريمة ... سمعة الانسان رأسماله كما يقال

.فكر أبو شهله .. لماذا لا يدخل الى الموضوع... الزواج لن يحصل

ـ بعض أصدقائي قالوا سلمان أبو شهله جارك وتبحث عن شريك ؟

ـ شريك ! شريك بماذا ؟

ـ لقد بعت قطعة أرض في القرية .. تعرف أنها أصبحت مدينة .. كان قد تركها لنا المرحوم والدي .. كانت القطعة خارج حدود البلدية ولكن التوسع العمراني أدخلها بمخططات السكن ... كانت تقاس بالدونم واليوم تقاس بالمتر المربع ... أفكر أن أعمل شركة لاستيراد المواد الغذائية ... أنت بخبرتك في الاستيراد والمعاملات مع البنوك والدوائر الرسمية وأنا برأس المال .. ما رايك ؟

ارتجفت يد أم شهله وهي تصب الشاي .. لقد كانت مفاجأة ... ابتسمت شهله ولكزت أختها ..وتاجر أيضا ... السيارة والبيت جاهزان ... لاتتعجلي سيأتي طلب الزواج لاحقا

.. ـ ولكن يا سيد سلمان

ـ ولكن ماذا... سلمان مثل ابنك وهو بحاجة الى المساعدة .. هل تتركه يذهب .للأغراب ؟ ... أنت خبير .. ما قيمة النقود اذا لم تجد من يعرف كيف يشغلها

ـ فعلا .. أنا ايضا أفكر بهذا ... غدا نذهب سوية لنختار المكان المناسب ... وقد نذهب الى غرفة التجارة ... بالمناسبة أنا لأمانع أن أخصص لك مكافئة شهرية لتدبر أمورك وأن تخصم من أرباحك ... هل يناسبك الساعة العاشرة ؟

ردت أم شهله ـ طبعا ... يستيقظ أبو شهله عادة في وقت مبكر .. لم ينس هذه العادة منذ أيام الوظيفة. ـ على بركة الله ... أستأذن ... أرجو الا تنسى أن تكتب العقد الذي سنوقعه ... الارباح مناصفة والادارة مسؤوليتك

! قالت أم شهله ـ لماذا أنت مستعجل .... على الاقل اشرب العصير

ـ شكرا خاله أم شهله ... تصبحون على خير

كان يعرف ردة الفعل ... ان عليه أن يراقب آثار الانفجار ... لم يفته تهامس الفتاتين ...عرف أنه المقصود وما أراحه أن شهله كانت تبتسم وأن رجاء كانت ... مذهولة .. مأخوذة بعض الشيء .. لقد تغيرت الصورة تماما

ليلا قالت أم شهله وهي تضع رأسها على الوسادة

ـ رزقكم في السماء وما توعدون ! ستعود شابا ... ما تحتاجه هو العمل

ـ نعم ... سيحل كل مشاكلنا المالية ... يبدو أنه يعرف ما يريد .. سيدخل السوق بقوة ... سأذهب للدائرة لتجديد علاقاتي ولسماع بعض التفاصيل المفيدة ... ما يقلقني ، ليس العمل ... انما رجاء ... انا أعلم أنه ذكي وانه يخطط للزواج منها.

ـ لن تجد رجاء أفضل منه .. أنت تعرف الظروف هذه الايام ! وعلى أية حال يمكن تأجيل الموضوع ... لا أعتقد أنه سيمانع

ـ نعم ... قد يمكن تأجيل الموضوع ولكنه سيسير في الظل بشكل متواز مع الشركة ... السؤال هو هل يصلح كزوج لها ؟

ـ نام يا رجل ... نعم انه يصلح

ـ سنرى .

في غضون يومين تم افتتاح الشركة ... استطاع فتحي أن يجد مكتبا كان معروضا للبيع في شارع 14 رمضان ... كان الموقع جميلا وملائما ... المكتب يحتل شقة من أربع غرف , تلفون ... فاكس ... تلكس .. أثاث شبه جديد .. كما جاء بسكرتيرة ... كانت مارجريت تعمل رئيسة قسم في احدى الدوائر الاستيرادية ... تجيد الانكليزية والفرنسية ... أنيقة ... شقراء .. قال سلمان استكمال المظهر واجب ... كذلك جاء بالرجل الذي سيعد الشاي والقهوة وينظف المكتب ... خالو جخيور ..

ـ سلمان ...خالو جخيور انسان محترم ... لا تناديه عمو ... منذ كنت طفلا في مدينة الحي وعيت على هذا الاسم ... أصبحت كلمة خالو جزء من اسمه ...انه نشط ومطيع ولا يتدخل في أي أمر لا يعنيه .

تم تسجيل الشركة ... شركة تضامن ... ستون بالمئة باسمه ، ثلاثون بالمئة باسم أمه و عشرة بالمئة باسم فتحي ... أصبح المدير العام وفي نفس النهار وقع العقد مع أبي شهله باعتباره الخبير التجاري ونائب المدير العام

ـ هل تعتقد أنه من الضروري تحديد مدة للعقد قابلة للتجديد أم ندعه مفتوحا؟

ـ كما ترى

ـ في الحقيقة أن تحديد مدته أفضل ... لأنه سيكون أكثر مرونة

أدرك أبو شهله ان هذا هو شرط زواجه من رجاء .... اذا لم يتم الزواج خلال مدة العقد يعود الى البيت .... حسنا يا سلمان ، واضح أنك لست سهلا !

ـ هذا ليس مهما أنت مثل ابني وأنا أريد مصلحتك ... سأذهب الى البنك لمعرفة المستجدات فى أمور الاستيراد خاصة ما يتعلق بالدولار والاستيراد بدون تحويل

ـ نعم يمكنك ذلك ...كي لا أنسى ... بمناسبة افتتاح الشركة ... أنتم مدعوون لدعوة عشاء في مطعم " الساعة "... بالطبع معك الخالة أم شهله والبنات .

التفت الى السكرتيرة:ـ ماري أرجو أن تحجزي لنا طاولة لسبعة أشخاص ... الساعة السابعة .

كانت أمسية جميله أبدى فيها كرما وحسن تصرف ومجاملة جعلت أبي شهله يبدأ بإعادة النظر ببعض انطباعاته السابقة ... لم يعط أي انطباع بأنه يفكر بالتقدم للزواج من رجاء رغم انه كان يبدي التعاطف معها أثناء الحديث وقد أراحها هذا السلوك المتفهم .

أثبت فتحي أنه مفيد ... اشترى مخزنا في حي جميلة حيث تجارة الجملة للمواد الغذائية ... كان فرصة كبيرة ... صاحبه اعتقل قبل يومين وأولاده مستعجلون على البيع ... تعرف على المستوردين ... نحن ندفع نقدا وقبل أن تخرج السيارة من المخازن ... نعم نقدا ... ولكن هذا يستدعي خصما من سعر مبيعاتكم للأخرين .... رائع فتحي لقد كانت بداية ناجحة وموفقة .

قال أبو شهله ـ يبدو أن الأردن أصبحت المركز التجاري للعراق ومن أجل ضمان استمرار وجودنا في السوق وعدم الاعتماد على سلوك المستوردين الانتهازي والمزاجي أيضا أعتقد أن من الافضل أن نفتتح شركة في عمان أو على الاقل ندخل شركاء في احدى الشركات الصغيرة لنضمن امكانية الحصول

على حق الادارة ومن ثم نقوم بالاستيراد .... الربح الكبير في الاستيراد المباشر ..

ـ هذا صحيح ولكن كيف سنتعرف على السوق في الاردن ؟

ـ بالطبع لن نذهب لنبحث عن شركة ... ! المعرفة ... علاقة .. في هذا المجال على الاقل ... لقد درست هذا الامر جيدا ... سيذهب وفد تجاري من ا لدوائر الاستيرادية الى الاردن ... رئيس الوفد صديق قديم ،سيختار هو الشركات التي سيقدمنا لها ... كل شيء بثمنه كما يقال. .

بعد ثلاثة أيام كانا في عمان ... وقد أثبت رئيس الوفد انه مفيد فعلا ... كان صاحب الشركة متعاونا لم يدقق كثيرا ... المهم أن نسبة الربح في المعدل الذي اقترحه وأن رأس المال الذي سيدخل كاف في المرحلة الحالية وأنه قابل للزيادة ... كان من نابلس .. انهى دراسته الجامعية في بغداد ... عمل في منظمات الطلبة ... لم يظهر ميلا لمواصلة العمل السياسي في عمان ولكنه كان حريصا على أن يحضر احتفالات السفارة بالمناسبات الرسمية ... عدل المحامي بضع فقرات كان صاحب الشركة قد أضافها للعقد ... صافح الجميع وقال .. على بركة الله .

كانا في الشرفة التي تطل على حدائق الملك عبد الله تحتهما وادي صقرة مليئ بحركة السيارات... وغير بعيد مصابيح اضاءة السفارة الكويتية التي تقع على مرتفع يشرف هو الاخر على ذات الوادي ..أضويه ملونة تنبعث من المباني الحديثة المبنية من الحجر الجبلي الأبيض.

ـ عمي أبو شهله أعتقد انك الان تملك فكرة واضحة عني ... انا رجل جاد وان مستقبل عملي مشجع ويمشي بخطوات ثابتة وواسعة ... ان مثل هذا يحتاج الى الاستقرار .... اسمح لي أن اطلب الزواج من الانسة رجاء ... لا أريد أن أعطي وعودا ولكن أرجو أن تكون على ثقة مطلقة من أني سأعمل على اسعادها .... ما رأيك ؟.

كان يعرف أن الامر ليس بيده ولكنه أراد أن يتصرف على النحو المتعارف عليه ... أم شهله قد زودته بكافة التعليمات

ـ أنا

بدى كمن فوجئ بالطلب ... حسنا يا سلمان لقد تعلمت الكثير من الجندية فأنت تتقدم دائما بالوقت المناسب وبالأسلوب الملائم

ـ آه... من جانبي لا مانع ... ولكن لابد من سؤال رجاء فهي صاحبة القرار

ـ اذا أعتمد عليك ... والان لنفكر بالعمل ... كيف سنتوسع ؟

ـ واحدة واحدة ... أنا رجل عجوز لا أستطيع متابعتك على هذا النحو ... ولكن لابد أن لديك شيء ما؟

ـ أنت البركة ... آمر الوحدة التي كنت أعمل بها أبدى رغبته بالعمل التجاري يقول لا يوجد شيء مضمون .. يملك الكثير ربما أكثر مما يخطر على بالك ... بالإضافة الى أنه يملك نفوذا واسعا نحن بحاجة له .. تصور اتحاد المال والسلطة، يوجد مصنع بسكويت معروض للبيع قال أنه يستطيع تدبير أمر الشراء بأقل من نصف سعر العرض ... كما أن هناك كراج سيارات متكامل في المنطقة الصناعية ... ما رأيك ؟

ـ اسمح لي أن أقول انه من المصلحة عدم التوسع على هذا النحو .. التوسع الافقي سيربكنا ولن يؤدي الغرض المطلوب ... لدي فكرة ! اذا كان صاحبك متنفذا فعلا فأنه يمكن أن نشترك معه ولكن بنفس مجالنا ... بدلا من الاستيراد للقطاع الخاص فقط ، الاستيراد للدولة .... الكميات كبيرة والربح مرتفع والدفع مضمون ... هذا بالإضافة الى اننا لن نحتاج الى مخازن ولا الى عملاء ... المهم أن يؤمن لنا المناقصات .... يمكن أن نبدأ بالزيوت النباتية ... لدي خبرة جيدة وأعرف بشكل شخصي الشركات المصدرة في سنغافورة وماليزيا .

ـ فكرة رائعة لم تخطر لي ولا في أحلامي ... عند عودتنا سنجتمع به وسنعرض له بالتفصيل ما نريد ... نقطة واحدة أريد التنبيه عليها ... لا تتحدث معه عن علاقته المالية بنا ... شراكته ...حصته ... فقط شكل وانواع المساعدة المطلوبة ...

ـ قد يستطيع الحصول على دعم اكبر اذا كان لديه علاقات أكيدة "فوق" ... قد نحصل على أوامر شراء مباشرة ونتجنب المناقصات ... هذا الشكل من العمل الاستيرادي لحساب الدوائر شائع ولكن " للمحظوظين " فقط

ـ جعلنا الله منهم ... وضحك ثم تابع ... الان انهينا الحديث عن كل خطط العمل .... ألا تعتقد أننا نستحق استراحة ... ما رايك في حفلة نجوى كرم في فندق الريجنسي؟

ـ لابأس فأنا لم أ حضر حفلة منذ مدة

كانت أم شهله تنتظر الاخبار ... كانت على ثقة من أن سلمان لن يترك الفرصة تفلت من يده ... كان يتحرك بسرعة وبثقة ، يعرف أين يضع قدمه ... سيكون مسقبلها ومستقبل زوجها مؤمنا معه ... لم تنجب ولدا ... ليس لديها من عائلتها أحد .. اخوان ... اولاد عم ... كان لديها خالة توفيت قبل عدة سنوات ولم تنجب غير ولد واحد سافر للدراسة في إنكلترة ولم يعد ... سمعت انه يشتغل طبيب في أدنبرة وأنه متزوج من ايرلندية ... زوجها ... كان لديه أخت توفيت بعد سنتين من الزواج ولم تنجب..... كان أبو شهله يكره السياسة وعادة لا يشترك في أي نقاش سياسي ..

كان موظفا مجدا تدرج بعمله الوظيفي خطوة خطوة ... بقدر ما كان كفؤا في عمله بقدر ما كان على الجانب الاخر فاشلا في حياته الاجتماعية ... لم يكون صداقات ولم يعرف غير الدائرة والبيت ... كان هذا يسعدها ... ولكنه يضايقها في بعض الاحيان ... كان عليها أن تبحث عن صداقات توسع من محيط علاقاتهم ولكنها سرعان ما تنقطع لأنه لم يكن يحرص على ادامتها ولهذا استقرت على بضع نساء من الشارع رقم 10 يزرنها بين الفينة والفينة ... كانت تعتقد انها ربما توفق في أن يتزوج أحمد احدى بنتيها ... ولكنه لم يكن يبدي اي ميل لذلك ...لم يهتم بتلميحاتها ... فشلت كل محاولاتها ...الان يظهر سلمان لقد فاجأ الجميع ... أين كان يخفي كل هذه المواهب

ـ نعم ...توقعاتك دائما مصيبة ... لقد فاتحني بموضوع رجاء

ـ وماذا قلت له ؟

ـ قلت أنها صاحبة القرار

مساء كانت العائلة تبحث الموضوع .. قالت شهله مازحة تخاطب أختها

! ـ جاءك الفرج

قال أبو شهله ـ لنناقش الموضوع بجدية ... ماذا تقولين ؟ أنت صاحبة القرار

لم تفاجأ ولكنها رغم ذلك شعرت بشيء من الارتباك وهي تواجههم

.. ـ في الحقيقة

بادرت شهله ـ ما دامت قد قدمت الحقيقة أولا فهي موافقة ... أنا أجزم بأنها .. قبلت

قالتها بلهجة مسرحية وبحركة من يديها

قال أبو شهله ـ يكفي

قالت أم شهله ـ أنت حرة ... تقبليه .. نعلمهم اليوم ... ترفضيه ... نؤجل الموضوع حتى الغد

ـ موافقه

ـ الحمد لله ... قالت أم شهلة

ـ موافقة على أي شيء ... انتظروا يا جماعه ... قالت شهله

ـ أنت لا تكفين عن المزاح ... حسنا أني موافقه على الخطبة ولكن لدي شرط واحد ... يوافق على استمراري بالدراسة

ـ لا مانع بالطبع ... هل يمكن أن أقف في طريق تعليمها ! ستكون زوجتي وأم أولادي والمديرة العامة لشركات السلمان للتجارة العامة ...

عمي أبو شهله لنذهب ... قد يحتاج المهندس المشرف على بناء الفيلا الى بعض المال .... بعد مراسيم الخطبة ، الخميس القادم ، ستذهب رجاء معي لمشاهدة البناء ... قد يكون لديها بعض الملاحظات.. الديكور مسؤوليتها .. أليس كذلك ؟

لم ترد رغم انها شعرت بالرضا وبشيء من السعادة تتسلل الى قلبها

الفصل السابع

قال أحمد ـ سنعود اليوم , لقد خفت حدّة القتال

قالت نادية ـ لاحتمل البقاء , التفكير بأبي يؤرقني

كانت فاتن مترددة، حديث ولديها مقنع وهي أكثر انشغالا على خالد , ولكن سلامتهما تأتي في المقام الاول , تعلم أن خالد لن يهدأ .. سيعود ليجد البيت فارغا وسيعمل على أن يصلهم .. الوضع خطر والقتال في كل مكان ... لو يبقى في البيت ينتظرهم ..آه لو يعرف أنهم لازالوا أحياء, اذا ربما هدأ واستقرت هي . .

قال فاضل ـ الجو اليوم جميل ، لا أمطار والشمس مشرقة ... ستجدون خالدا بانتظاركم

تجمعت بضع سيارات عند مصنع الاطارات ... بدأ بعضهم يشجع البعض للبدء بالمسير سوية ولكن من يكون في المقدمة ؟ ... كانوا خائفين يتلمس كل منهم الشجاعة في الموقف الجماعي ، فأصوات الانفجارات لازالت تسمع بوضوح وان تك قد خفت عما كان الوضع عليه في الليلة الفائتة ..

وافقت فاتن على الخروج وتحمل المخاطرة لأنها بدأت تتضايق من سلوك فاضل، بدأ أولا بالزعيق على بناته دونما سبب ،لقد أصبح ضيوفه أثقل من أن يتحملهم ، نفد الطعام الذي جاؤوا به ويتعذر الحصول على المواد الغذائية ، يشتركون جميعا في وجبة العدس التي تتكرر مرتين في اليوم ... كان العدس من النوع الرخيص الذي يصعب تنظيفه ، يظل حصى غير منظور يصك الاسنان ... المصباح النفطي يطفأ قبل التاسعة ... نصائحه التي يلقيها بصوت عال لا تنتهي ... يا جماعه الاقتصاد واجب ...لا أحد يعرف متى ينتهي كل هذا

لم تجد ناديه قطعة الصابون صباحا.

قالت لأحمد ـ لقد بدأت خطة التقشف

طرق الباب شاب , هذه حصتكم من المواد المستولى عليها من الشركة العامة للمواد الغذائية ، كانت قنينة زيت ذرة وثلاثة كيلوا طحين وقليلا من الشاي وقطعتي صابون ، الحمد لله جاءت في وقتها ، استلمها فاضل وقرر أن يشرف بنفسه على استعمالها..

حاولت فاتن شراء بعض الخضروات ، كانت تذهب يوميا دون أن تجد شيئا ، قد توفق أحيانا فتجد عدة عيدان من الكرفس وبعض حبات الطماطم الناضجة وقد تجد ، اذا حالفها الحظ بضعة رؤوس من البصل اليابس.

قال فاضل ـ لابد من الذهاب للسوق كل ساعتين أو ثلاث أثناء النهار ... من يدري قد يقرر أحدهم بيع ما لديه قبل أن يتلف ، ذهابك الى السوق رياضة .. الجلوس المستمر مضر بالصحة ..

مساء يوم سفر خالد جاء تهم خديجة من النجف ... غدا عيد ميلاد سهى ، لا يوجد من يحتفل معنا ... حضوركم سيسعدنا كثيرا ... تقضون يومين معنا بدلا من بقائكم في البيت ويمكن أن تعودوا قبل رجوع خالد من الأردن.

. قالت فاتن ـ ولماذا لا , على الاقل لن نقضي الامسيات وحدنا

أسرعت بأعداد قالب كيك و جمعت ما في الثلاجة وأرسلت أحمد ليشتري الصابون وبعض البقوليات ، بيت خديجة يحتاج ... فاضل لا يحقق دخلا كافيا ، راتبه على راتب خديجة لا يسد

الضروريات .... لم تنس أن تأخذ معها ما تعتقد أنه كاف من النقود فقد يجدون السوق مفتوحا فيشتروا هدية مناسبة لسهى ، أوصت أم شهله بأن تأخذ بالها من البيت ... قد يطمع أحد بسرقته ،لأية حركه غير طبيعية في البيت استدعي الجيران .

قال رجل يقود سيارة مرسيدس زرقاء

ـ من سيتقدم الرتل ؟

كان الرجل مفرطا في أناقته على نحو بدا غريبا في مثل هذه المناسبة ... كان يرتدي بنطالا أسودا من القماش الانكليزي الفاخر وسترة رصاصية من التويد ويضع ربطة عنق زاهية ومنديلا في جيب السترة الأعلى من ذات ألوان الرباط .. كان حذاؤه لامعا وكأنه قضى وقتا طويلا في تلميعه ... بجواره كانت امرأة تضع على رأسها شالا أسودا حوافه مشغولة بأغصان تحمل ورودا لم تستكمل اكمامها لتتفتح بعد ،في المقعد الخلفي كانت فتاة في الثامنة عشر يبدو عليها الضيق الشديد فهي لا تطيق التطلع الى السيارات الاخرى وكأنها تشعر أنها في المكان الخطأ .

ردت امرأة وهي تطل برأسها من نافذة السيارة التي يقودها زوجها الكهل ـ الشباب أولا.

كان الجميع مترددين ، فطوال الليل دارت معارك ضارية ... حاولوا اقتحام المدينة ولكنهم فشلوا ... عند تراجعهم ، ضربوا المدينة بالمدفعية وطائرات الهيليكوبتر ، بعد منتصف الليل قصفت بصاروخين سكود .... مع بواكير الفجر هدأ كل شيء.... شجع هذا بعض الأهالي على محاولة الهرب من المدينة ... كان بعضهم زوّارا جاؤوا لقضاء أمسية أو بضع ساعات ولكنهم حشروا قسرا بسبب ما حدث،.

سمعت طلقات متفرقة ثم دوت انفجارات مدافع الدبابات ومدافع الهاون ... ولولت النساء وبدأ الاطفال بالصراخ ... أدار الجميع محركات سياراتهم للعودة ثانية للمدينة ... تزاحموا على الشارع العام بسبب الارتباك والفزع مما أدى الى اصطدام بعض السيارات ببعضها ... السيارة المرسيدس الزرقاء كان سائقها عجلا ... اندفع الى الارض الرملية الممتدة مع الشارع العام ،

قذيفة شطرت السيارة نصفين فتناثرت أجساد الركاب ... صرخ أحمد ... ماما ، نادية اخفضا رأسيكما ولا تتطلعا للخارج ... كانت امرأة تشتم السياسيين وجيوش العالم وقادتها ... راحت فاتن تكرر قراءة آية الكرسي , أحرسنا يأرب ... دخيلك يا ألهي ... شاهد أحمد القذائف تتجاوزه وهي تسحب وراءها خيطا من اللهب والدخان ثم يدوي انفجارها ... عادت الهيليكوبترات تتصيد بصواريخها تجمعات المقاتلين ومواقع استحكاماتهم ... انعطف الى اليسار عند مدخل المدينة ، توقف عند الباب ونزل يساعد أمه وأخته ،أنزل حقيبة الملابس

كان فاضل يجلس على كرسي بلاستك في باحة الدار , يضع ابنته الصغرى في حضنه ... لم يبد عليه الاستغراب ولم يكن مرحبا

ـ ها ... عدتم

ـ ابتدأ الهجوم ولا يمكن المغادرة

ـ لن يتركوهم هذه المرة , كثافة القصف تؤكد أن هجوما كبيرا قد بدأ

ـ الله الساتر . قالت فاتن بامتعاض

لم يبد أحمد أية ملاحظة ... كان خائفا أما ناديه فقد استحال وجهها الى ما يشبه ليمونة ظلت على الشجرة في أواخر الشتاء ، كانت مرعوبة

يدركون أنهم غير مرحب بهم في بيت فاضل ولكن لا بديل ... سيكون الموت في البيت أرحم ، في الشارع قد يستحيلون الى اشلاء متناثرة لن يتعرف عليها أحد ... سرت قشعريرة بجسد فاتن ... حتى مكان الموت أصبح أمنية

قالت خديجه ـ سأعد لكم ما تأكلوه

... قال فاضل ـ سخني العدس

كظمت فاتن غيضها ... ودت لو تصفعه ... لو فعلت لشعرت بالارتياح ... سيكون ذلك قلة ذوق ولكنها سترتاح ... زم أحمد شفتيه ... قطبت ناديه عينيها ودخلت الصالة .. طأطأت خديجة رأسها فيما تدحرجت دمعة كبيرة على خدها . ولكنها لم تتكلم ... أحس أحمد بالقهر الذي يخنقها

دوت قذيفة لتسقط على الجدار المقابل فيتناثر الآجر والغبار ... قفز فاضل حاملا ابنته من عضدها

ـ اختبؤا تحت السلم

كانوا يفعلون ذلك كلما اقترب الصوت المرعب ... تحت السلم أكثر أمانا خط دفاعي كما كان يسخر خالد ... درجات السلم الكونكريتية ... الجدران المتقاربة ... ظل فاضل مقرفصا ملتصقا بالزاوية يحتضن ابنته الصغرى ، يحمل وجهه تعبيرا هو مزيج من الخوف والفضاضة .. نادية لا يعرف كيف يجبرها على احترامه ... ترد عليه بتعال واضح وباقتضاب يحمل طابع الاستهانة ... كان يدرك أنها تملك شخصية قوية ، عميقة التفكير متفتحة وغير مترددة ... كان ا ... طلاعها الواسع يدهشه حينما ترغب بالمناقشة

ـ لماذا تفضلين سوناتات شوبان ... هل بسبب طبيعتها الرقيقة ؟

ـ قالت بسخريةـ ربما بسبب إيحاءاتها الصامتة

ظهرا اقتحموا المدينة ... كانت معارك الشوارع بالغة الفظاعة ... كدست الاجساد البشرية في الشاحنات ... كانت أيديهم مربوطة الى الخلف وعلى العيون عصابات سوداء فيما بدوا منهكين وجوههم قاتمة الملامح يشد عليها إحباط قاتل.

كانت سيارات أخرى تنقل الاثاث والسجاد

ـ سيدي وهذه الكتب؟

رد ضابط شاب بلكنة غريبة ... الكتب ... ماذا سنفعل بها ... احرقوها

في اليوم التالي هدأ كل شيء ...تم تنظيف الشوارع من الجثث لكن بقايا بقع الدم كانت لاتزال تلطخ الإسفلت والارصفة ... هبت ريح شديدة تكنس الشوارع وتحاول أن تمسح وجه المدينة المثقل بالجراح ... في الليل انهمر المطر ... كانت قطراته كبيرة تصفع وجه الارض بقوة وتسح بامتداد الشوارع لتشكل بركا في الساحات .

ظل الجنود في دباباتهم أو على الشاحنات ... من أحتل المباني احتمى بالسقوف الكونكريتية متربصا وراء الشبابيك أو فوق الاسطح حيث ربضت الرشاشات تحوطا من اية طوارئ.

لم يكن لديهم ما يطبخوه ... خرجت خديجة الى الجيران لكنها عادت دون أن تتمكن من الحصول على شيء ....قالت فاتن سأذهب الى السوق ... كانت تمني نفسها بأن تجد شيئا ما كما انها كانت تريد أن يلاحظ فاضل أنهم يحاولون....

كانت امرأة تعرض قالبا من الجبن الابيض وعدة بيضات ... كان السعر عاليا ولكن فاتن لم تساوم ... تخشى أن يسبقها مشتر آخر .... كانت وليمة فاخرة

قالت فاتن ـ أعتقد أن الاوضاع عموما ملائمة

قال أحمد ـ سأستطلع الوضع وأعود

عاد عجلا ... نعم نستطيع الخروج .... التفتت فاتن الى القبة الذهبية اللامعة وشملت المدينة بنظرة أسى حزينة .

في الطريق الى بغداد كانت الشاحنات على امتداد الشارع ... على مداخل المدن على الطريق كانت الدبابات توجه مدافعها الى الداخل ... بين بساتين النخيل مئات الجنود بملابس الميدان .

قالت فاتن ـ هل انتهى فعلا الكابوس ، كنت أحس أني أختنق أود أن أصحو , هل صحونا جميعا

قال أحمد ـ حتى الان نعم

قالها بشيء من الشك واندفع بالسيارة ... عند نقاط التفتيش كان يسيطر على انفعالاته ... ربما ... نعم..... ربما يوقفه أحد رجال السيطرة!!.

. قالت ناديه ـ هل سأرى أبي ... أتشاقه كثيرا

كان الفجر في منتصف آذار نديا... أشجار البرتقال والليمون زاهية ، تتلألأ عليها الثمار الصفراء ، ليلا عبرت سماء بغداد مسرعة ، غيوم غسلت وجه المدينة ثم اختفت غربا ،

. تطلع الى حديقة الدار الأمامية بشعور عميق من الراحة وبشيء من الرضى

مساء عادت عائلته .. كانت فاتن قد اصبحت أكثر نحافة وفي عينيها نظرات قلقة وجلة ... بكت على كتفه دون أن تتكلم ... أحمد يتصرف كرجل وبمسؤولية وهو يتحدث اليه .. ناديه ... كبرت ...أصبحت كمن تعرّف على جوهر الاشياء . فهي تبدو أكثر هدوء وأكثر ثقة

لم يستطع النوم .. تظاهر به فقط ليدعهم يخلدون الى الراحة .... عند الفجر . تسلل الى الحديقة

النخلة عند الباب تقف بكبرياء ... حفيف السعف الناعم يبعث في نفسه ذكريات حالمة ... تذكر شط العرب وغابات النخيل وأماسي اللقاءات العائلية الحميمة ... كانت حاويات الطلع تبرز على استحياء حوافها غامقة الخضرة أما المناطق الوسطى منها فقد كانت أميل الى اللون البرتقالي الفاتح ... ست عشر عذق حول . رأس النخلة بين السعف ... اذا فأن موسم هذا العام سيكون جيدا

قال أحمد ـ كان وقتا عصيبا

قالت ناديه ـ كان المقاتلون شجعانا

قالت فاتن ـ لم نجد ما يكفي من الطعام ... كنت أطعم الاولاد العدس ... تناولوه على مدار اسبوع كامل... كنا نتمثل الرعب والخوف ونحن نسمع القذائف تعبر فوقنا ... كنت أحتضن أحمد وناديه وأستنجد بكل ما أحفظه من القرآن الكريم ،حين خرجنا كانت الجثث ما تزال في الشوارع وكانت طائرات الهيليكوبتر تفتش كأفاع سامة ،لا أريد الحديث عن فاضل ، كانت خديجة محرجة . وخجلة ولكن ليس بيدها أن تفعل شيئا , أتفهم وضعها

تطلع الى وجه فاتن الراقدة كطفل منهك , أنفاسها منتظمة عميقة ، ناديه كانت . تحتضن دبا قطنيا كبيرا ... أحمد كان يصدر أصواتا رتيبة

لازالت السماء داكنة الزرقة ، نجوم باهتة تتيه في المساحات اللانهائية .... لذعة البرد الصباحية المشبعة بالرطوبة تنتظر الشمس الدافئة ... يوم جديد يولد ... الحياة تعود ثانية ... ماذا سيظل في وجوه الناس ؟... أي الذكريات ستحملها سيمائهم وهم يتحدثون ، مجرد ثرثرة لامعنى لها ... هكذا ستكون الأحاديث ، لأن أيا منهم لن يستطيع أن يتحدث عما وقع ، سيشرع الخوف أبوابه ليدخل الجميع

سمع طرقا على الباب الحديد الخارجي

ـ من ؟

ـ أنا جمال

ـ جمال ... ماذا أتى بك في مثل هذا الوقت ؟

ـ افتح وسأشرح لك كل شيء

كان جمال يحمل طبقا مغطى وكيسا

ـ أهلا جمال

ـ قرت الاعين بسلامة العائلة

ـ شكرا ولكن كيف عرفت ؟

ـ لقد كان سلمان ، جاركم ، عند الدلال في منطقتنا ليلة أمس يشتري عمارة وقطعة أرض وهو الذي أخبرني بذلك ... قررت أن أفاجئكم ... قيمر وعسل وخبز تنور من يد أختكم ... افطارا شهيا ... ولكن لماذا أنت صاح مبكرا ؟

ـ لم أستطع النوم ... لم اشعر بالحاجة اليه ... قلت أشاهد الفجر في الحديقة ... شكرا لهذه الالتفاتة.

ـ لا لم أفعل إلا الواجب

ـ سأعد لنا شايا ... أشتاق أحاديثك

ـ حسنا لابأس

جلسا يتناولان الشاي على طاولة المطبخ ويتطلعان الى الفجر وهو ينسحب بهدوء فيما بدأت عصافير فرحة تزقزق على أشجار البرتقال وتتقافز فوق النخلة

.. غرد بلبل وحيد بنغم شجي فصمتت العصافير مستغربة وتمايلت سعفات النخلة وهي تستقبل موجة من هواء بارد

قال جمال ـ الحديقة عندكم رائعة ... ليالي الصيف في الحديقة منعشة ... هل تدري .. لم اسمع عن جاركم الا مؤخرا .

ـ من ؟ سلمان

ـ نعم .. لقد اشترى حتى الان على الشارع التجاري ثلاث عمارات وعدة قطع لأراض سكنية... هل هو من عائله ثرية الى هذا الحد ؟... من غير المعقول أن يكون هو من عمل كل هذا.

ـ الذي أعرفه أنه قبل أن يذهب الى الكويت كسائق لم يك لديه ما يدفع به ثمن الشاي في المقهى ... يدعي انه ورث قطعة أرض في بيجي ... كانت زراعية وأدخلت الان في المخطط العمراني كسكن وبهذا تحول الى ثري

ـ معقول

ـ كل شيء اليوم معقول ... لا تلح كثيرا

. ـ العياذ بالله ... على أية حال اسمح لي بالذهاب

كانت الساعة الحادية عشر حين جلسوا الى مائدة الافطار

قالت فاتن ـ الحمد لله نعود ثانية للحياة ... ليس أجمل ولا أحلى من البيت ... وكما يقال بيت الانسان قصره ... كما ليس أفضل من الامان

قالت نادية ـ نعم ... الامان .. ولكن كيف ؟

كان صوتها مشوبا بنبرة شك ... في ذهنها ما شهدته ... هل سيتحقق الأمان بعد كل الذي حصل

قال أحمد ـ لم أك أصدق أننا سنعود الى حياتنا الطبيعية

قال خالد ـ استمتعوا بهذا الافطار الشهي أما المستقبل فلندعه الان فوجع الوطن سيظل ينزف طويلا